

روايات جائزة نوبل

17

أندريه جيد

إيزابيل

7.8.2017



فتحي العشري

تقديم
وترجمة

الدار المصرية اللبنانية

إيزابيل

Isabelle

رواية

أندريه جيد

فتحي العشري

تقديم وترجمة

جيد ، أندريه .

إيزابيل Isabelle : رواية أندريه جيد ؛ تقديم وترجمة فتحي العشري
ط1.. القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009 .

160 ص ؛ 21 سم

تلمك : x - 489 - 427 - 977

1 - القصص الفرنسية .

أ - العشري ، فتحي (مترجم ومقدم) .

ب - العنوان . 843

رقم الإيداع : 2009 / 9447



الدار المصرية اللبنانية

رئيس مجلس الإدارة : محمد رشاد

رئيس التحرير : فتحي العشري

16 عبد الخالق ثروت - القاهرة .

تليفون: 23910250 + 202

فاكس: 23909618 + 202 - ص.ب 2022

E-mail: info@almasriah.com

www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : شوال 1430 هـ - سبتمبر 2009 م .

إهداء

الحكم الدولي لكرة القدم رجال

ومملكة جمال العرب المثالية ..

شيء منصور

نموذجاً رائعاً للفتاة المصرية

فتحي العشري

تصدير

توقفنا فترة ؛ لنراجع مشروعا الطموح « سلسلة روايات جائزة نوبل » ، فتسرب المشروع إلى جهات كثيرة في الداخل والخارج .. ومع هذا يظل مشروعا هو الرائد وهو الأفضل ؛ لأننا نختار ، ونحسن الاختيار .. نختار أبرز وأشهر الفائزين بالجائزة ، ونختار أبرز وأشهر وأعظم روايات هؤلاء الفائزين بالجائزة ، ونختار أكثر المترجمين دقة ومهارة وتميزاً .. ولأننا نترجم عن اللغات الأصلية .. ولأننا لا نكتفي بالترجمة ، ولكننا نضيف المقدمات الوافية عن المؤلفين والروايات والمترجمين أيضاً .. ولأننا نعهد إلى الناقد المتميز « فتحي العشري » بالإشراف الكامل على السلسلة ، ونعهد إلى الفنان المتألق « محمد حجي » بتصميم الأغلفة والبورتريهات ، ونعهد إلى العاملين بإدارة النشر بالتحريير والمراجعة والتصحيح ؛ حتى تصدر كتب السلسلة في شكل متقن ودقيق .. ولأننا ننشر الكتب في أجمل قطع وأبهى شكل.

والأمل ، كل الأمل ، ألا نتوقف مرة أخرى ، حتى نستكمل مشروعا الطموح « سلسلة روايات جائزة نوبل » ، الذي كسب ثقة جمهور قراء « الدار المصرية اللبنانية » ..

والله الموفق ،

محمد رشاد

رئيس مجلس الإدارة

مُقَدِّمَةٌ

أندريه جيد ... الأخلاقي

أندريه جيد هو الحائز على جائزة نوبل في الأدب عام 1947م ،
مضيفاً للفرنسيين جائزة جديدة من هذه الجوائز العالمية الفريدة ..

ولد أندريه جيد في الثاني والعشرين من نوفمبر عام 1865م . في
العاصمة الفرنسية عن أب وصل إلى كرسي القانون بكلية باريس ،
وأُم من أسرة ثرية .. كان الأب بول والأم جوليت رونورد من صفوة
المجتمع بحيث وجد أندريه نفسه ، وهو بعد في شبابه ، يجلس بين
الوزراء ورجال الدين .. أما تعليمه فقد تلقاه على أعلى مستوى ، بداية
من المدرسة الإلزامية الداخلية التي أبعدته عن أسرته فترة مرض فيها
.. فلما توفي والده - عام 1880م ، وكان أندريه في الخامسة عشرة ..
أصبحت الأم بحالة عصبية ، ثم انتقلت إلى مونبلييه مع ابنها إلى جانب
عمه رجل القانون والدراسات السياسية ، ولكن في شقة ضيقة بعيدة
عن مظاهر الثراء الأولى ولا ندري لماذا ..

ومع هذا فرضت الأم البروتستانتية المتشددة رقابة مشددة على
ابنها ، ولم تنس أنها نورماندية بورجوازية حتى بعد رحيل الأب
وتراجع مستوى الأسرة الاقتصادي .. لم تكن الأم هي المرأة الوحيدة

في شباب أندريه ، فقد قامت على رعايته نساء أخريات منهن خالته ماتيلدا التي أقام معها عام 1882م ، وعاش ابنتها مادلين التي أثرت فيه كثيرًا لدرجة أنها أصبحت بطلة لإحدى رواياته ، وهي « اللا أخلاقي » التي كتبها عام 1902م .

أفاد أندريه في هذه المرحلة من العزلة بزيادة القراءة والتأمل من ناحية، وبتزعة التمرد والثورة التي ظهرت في كل كتاباته من ناحية أخرى..

وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الأول « كراسات أندريه فالتر » ، وهو بعُد في الثامنة عشرة من عمره .. ويلاحظ أنه لم يعلن عن اسمه صراحة ؛ فاستعار اسمًا آخر ، والواقع أنها مذكرات أكثر منها أي شيء آخر ... ولم يكن هذا بسبب الكبت والتزمت وحدهما ، ولكنه كان أيضًا نتيجة لتعرفه على « مالارميه » و« هوسمان » و« مانيرلنك » ..

ووصل تمرد أندريه جيد إلى حد مهاجمة فكرة الأسرة ، وخطأ الرجل في الارتباط بامرأة ، وأنه لا توجد أسرة مثالية .. ودون تلك الأفكار الغريبة على المجتمع في « بحث نرسييس » ، والكلمة كما هو معروف تعني « النرجسية » أو حب الذات .. وهو ما كشف عن مسعى جيد الدائم للحرية ، فهو يستهدف تحرير نفسه وتحرير الإنسان بشكل عام ..

في هذه الفترة وهو بعيد عن أمه كتب لها رسائل ، يعبر فيها عن حبه لها رغم ضيقه من تشدداتها ؛ لأنه لم ينس أنها هي التي شجعتة على القراءة ، وأنها الإنسان الوحيد الذي يأنس إليه ويستكين معه .. حتى

أن « كراسات أندريه فالتر » جاءت إلهامًا من أمه فضلًا عن التأثير
بالأفكار القادمة من ألمانيا وبريطانيا ..

فالفيلسوف نيتشه كان قد أطلق فلسفته الهتلرية في فكرة « الإنسان
الخارق » ، وفي المقابل انطلقت على يد أوسكار وايلد الدعوة للإيمان
بجمال الحياة والفن .. وانحاز جيد لوايلد ، ولكنه أثر أن يستطلع آراء
أخرى ، فقرأ ديستوفسكي وباريس وطالع تاريخ اليونان والرومان ،
والتهم عددًا من اللغات ومنها اللغة العربية .

ولعل الأفكار المتعارضة سواء القادمة من الخارج ، أو تلك التي
نادى بها ، واعتنقها مفكرو فرنسا ، هي التي جعلت من جيد هو
الآخر طائرًا بجناحين ، وخاصة في شبابه ، فهو المغامر ، وهو العاقل
في الوقت نفسه ، وهو الذي يسعى للمتعة الذاتية ، وهو الذي يقدم
على التضحية .. هو الذاتي وهو الغيري في الوقت ذاته ..

من هنا تأثرت أعماله فكتب « الأطلعمة الأرضية » و « الشاذ »
و « الباب الضيق » و « السيمفونية الريفية » و « المزيفون » .. وهي أعمال
تظهر هذا التناقض واستهتار ميشيل في « الشاذ » والتزام « اليساد » في
« الباب الضيق » و « الخارج على القانون » لافاكاديو ، ورجل الدين
المتمسك بدينه والمتمسك بقيمه ..

لكن عام 1895م عصف بجيد فقد ماتت أمه ، ووجد نفسه وحيدًا
مكتئبًا ، وكانت أصداء جوته بشعره وعبقريته تتردد في كل كيانه ..
عندئذ فكر في الارتباط بصديقة الصبا والأحلام « مادلين » ابنة خالته ،
وكانه يبحث دائمًا عن أمه في أقرب الناس إليها ..

و«مادلين» فتاة رقيقة أثرت على جيد بقوة حتى إنها أصبحت الشخصية المحورية في إحدى رواياته ، وهي «اللا أخلاقي» ، بل في أعمال أخرى أيضًا .. وعلى الرغم من أن مادلين كانت تكبره بثلاث سنوات ، إلا أنه كان يرعاها ويحتضنها ، حتى وهي تبدي نضجًا وتعقلًا وحكمة وجدية .. تحولت الصداقة إذن إلى زواج ، وسافر معها إلى شمال إفريقيا وإيطاليا وسويسرا ، وهي الرحلة التي كتب عنها في رواية «اللا أخلاقي» التي تقترب كثيرًا من شكل المذكرات أو هي كذلك .. لم يهجر جيد فكرة المذكرات والاعترافات في أعماله ، فسجل مراسلاته مع بول فاليري في «إذا كانت البذرة لا تموت» ، ومع بول كلوديل في «اليوميات» ..

لكن المذكرات الأهم جاءت في كتاب بدأه عام 1889م ، وانتهى منه عام 1947م .. وقد أفضى في آخره عن خلاصة تجربته الحياتية والأدبية إذ قال : «أقمت مدينتي التي سيسكنها فكري من بعدي مخلدًا إلى الأبد وأنا أشعر بالرضى ؛ لأنني أطرق باب الموت وحدي بعد أن استمتعت بخيرات الدنيا وشعرت بأنني سأكون سيبًا في إسعاد الناس الذين سيكونون من بعدي أسعد حالًا وأكثر حرية وأفضل وضعًا ... لقد قمت بعمل من أجل خير الأجيال البشرية القادمة . ولقد عشت حياتي ..» .

ولعل أهم أعمال جيد بعد ذلك تتمثل في «بحث نيرسيس» عام 1892م ورحلة عام 1907م و«الباب الضيق» عام 1909م و«إيزابيل» عام 1911م ..

ورغم كل هذه الأعمال لم ينتشر اسم جيد ولم تتحقق شهرته ، ولم ينل تقديره ، ولم يحظَ بمجده إلا بعد أن قدّم المسرح الفرنسي معالجة درامية لإحدى رواياته ..

فقد قال عنه الناقد الفرنسي « بنيامين كريميو » إنه رغم شخصيته المضطربة المعقدة المتناقضة القلقة ، إلا أنه شخصية نادرة وصورة ثرية لفنه الثري .

ويقول د. نظمي لوقا : إن قراءة ديستوفسكي وفرويد قد أكسبت جيد قدرة على أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التي تكبتها التربية في أعماق أغوارنا ، فإن لم تجد متنفساً لها سممت منابع الحكم العقلي ؛ وهكذا تتحوّل الأخلاقيات الظاهرة إلى نفاق ورياء ؛ ولذا نادى بالاستجابة الصريحة لدوافعنا الحيوية ولو أدى ذلك إلى الفضيحة . ويعتقد أنه ربما ظهرت في هذا الإطار الصريح شعلة العبقرية .. هو إذن ضد الانقياد للأخلاقيات الشائعة ، بل هو ضد كل انقياد من جانب الفرد للتيار العام انقياداً أعمى ، ولكنه مع هذا احتفظ في تكوينه النفسي بتيار متدين ، وهذا هو السر في أن معظم أعماله يستشهد فيها بالإنجيل .

اسمعه وهو يقول : « كم أتمنى أن أقمع شهواتي بالعمل المضني » .. وقد قيل عنه إنه يتمتع بعاطفة دينية دفيئة رغم أفكاره التحررية ، فهو يذكر الله والآخرة بطريقة المتصوف الزاهد ، الذي يدرك أن نهاية المطاف تقضي إلى لقاء الله ؛ فهو الوحيد في كل مكان .

فإذا تناولنا رواية مثل « اللا أخلاقي »، وجدنا أن جيد هو نفسه ميشيل في علاقته بالحياة والناس وأمه . أما والده فلم يذكره كثيراً، بينما تحدث عن إفريقيا طويلاً نتيجة لزيارته لها، مُركّزاً على الجزائر وتونس، وخاصة مدينة سوسة التي عاش فيها الوقت الأكبر من رحلته الإفريقية، فهو يرى أن إفريقيا تحمل في داخلها جاذبية غريبة على حد تعبيره .

أسمعه وهو يقول عن إفريقيا : « إنني في إفريقيا أسمع وأرى وأتفلس مثلما لا أفعل في أي مكان ، وحينما تسلك عطورها وألوانها وعبقها في داخلي فإنني أحس بقلبي يفرح ويتحب من العرفان الجميل .. خذوني إلى داخل هذه الأرض كي أصبح وأنا أحس بضياؤها ، وباله من ضياء مشع ! » .

أما إذا تناولنا هذه الرواية « إيزابيل » ، فسنجد أنه يعترض على تحرر البطلة الزائد والرغبة في التخلص من القيود، بأي طريقة وبأي ثمن .. مما يؤكد أن هذا الاعتراض لا يتعارض مع رفضه للترتم والقهر ، وهما ما تعاني منه المرأة أكثر من الرجل في كل المجتمعات حتى المتقدمة منها .

وتقديراً لإحساسه بالناس ومحاولة تمهيد طريق الهداية والقناعة والرضى والإيمان أمامهم ، مُنح جائزة نوبل العالمية في الآداب عام 1947م .
ورحل جيد في عام 1951م عن 86 عاماً ، لم يحس في أواخرها قطُّ أنه كهل أصابه الوهن ودهمته الشيخوخة ، فقد ظل يكتب ويبعد بعد بلوغه الثمانين من عمره ، ولم يكف إلا بعد أن أصابه المرض في السنوات الثلاث الأخيرة من عمره .

شخصيات الرواية

Gerard Lacase	جيرار لاكاز
Benjamin Floche	بنيامين فلوش
Mme Floche	مدام فلوش
Saint - Aureol	سان - أوريول
Mme de Saint - Aureol	مدام دي سان - أوريول
L Abbe Santal	لابيه سانتال
Isabelle	إيزابيل
Casimir	كازيمير
Mlle Verdure	الآنسة فيردور
Cratien	جراسيان

إيزابيل

جيرار لا كاز الذي تقابلنا عنده في أغسطس عام 1891م قام باصطحابي وفرنسيس جام إلى قصر « الكارفورش » بعدما اندثر ، ولم يبق منه غير أطلال خربة وحديقة شاسعة مهملة يصول ويجول فيها الصيف بتهرجه . حتى مدخل القصر لم يعد يحويه شيء ؛ فالخندق رُدمَ حتى نصفه ، والسياح المحيط به تهدم ، والبواب الحديدي لم يعد مُحكماً للدرجة أنه يستسلم لأول دفعة من كتف أحدنا . اختفت الممرات بعد أن جاوزت الأرض الخضراء حدودها .. فترى بعض الأبقار طليقة ترعى الكلاء الغزير .. بينما تنشد بعض الأبقار الأخرى مكاناً رطباً وسط الأدغال المترامية الأطراف . لايميز المشاهد هذا الفيض البري .. زهرة غريبة كانت أم أوراق شجرة مختلفة عن النباتات القديمة تكاد تختنقها النباتات الشائعة بأنواعها .

كنا نسير خلف جيرار دون أن ننطق بكلمة واحدة ، كنا مبهورين بروعة المكان والتوقيت ، ونشعر بكل ما ينطوي عليه ذلك الرخاء من حزن وهجر . بلغنا سلم القصر ودرجاته الأولى الغارقة في الأعشاب ، بينما درجاته العليا محطمة ومنفصلة بعضها عن البعض الآخر . وما إن وصلنا إلى أبواب غرفة الاستقبال وهي نوافذ في الوقت نفسه حتى اعترضنا مصاريعها المنيع . لم نتمكن من دخول القصر إلا من فتحة في القبو ، تسللنا عبرها كما للصوص .. كان هناك سلم يؤدي إلى

المطابخ فلم تكن الأبواب الداخلية مغلقة .. واصلنا متنقلين من غرفة إلى أخرى بحذر ، فالأرضية تميد تحت أقدامنا موشكة على الانهيار ، نضغط صوت خطواتنا ليس خشية من أن نسمعا أحد ، ولكن لأن الصدى الذي أحدثه وجودنا في القصر الخالي المتسم بالسكون المطبق كان يدوي لدرجة الفزع ، خاصة أن نوافذ الطابق السفلي خلست من الألواح الزجاجية .

في شبه الظلام الذي يكتنف غرفة الطعام وجدت أعشاب البينونيا من خلال مصراعي النافذة بسيقانها الضخمة اللينة البيضاء اللون .

جيرار تركنا ، واعتقدنا أنه فضل أن يشاهد وحده مرة أخرى هذا القصر الذي عرف أصحابه ، فواصلنا تفقدنا بدونه ؛ إذ ربما يكون قد سبقنا إلى الطابق الأول مُجتازًا تلك الغرف الفارغة التي تخيم عليها الكآبة . في إحدى تلك الغرف غصن من البقس لا يزال يتدلى على الجدار يقبده إلى أبزيم شريط حريري انطفأ لونه وبدأ متأرجحًا عند طرفي رباطه في وهن ، فأدركت أن جيرار انتزع منه فرعًا وهو يمر منذ برهة .

قابلنا جيرار في الطابق الثاني ، بالقرب من نافذة أحد الممرات كانت بلا زجاج ينفذ منها حبلاً يتدلى من الخارج وهو لأحد الأجراس .. هممت بجذبه برقة وعلى مهل فشعرت بذراع جيرار تمسك بذراعي ، ولكنها زادت من مداها بدلا من أن توقف حركتي .

وفجأة دوى صوت مكتوم بالقرب منا بحيث جعلنا نستفض في
فزع بعدها ، ولما عاد السكون سمعنا دقتين متباعدتين لم يلبث أن غاب
صداهما .

استدرت ناحية جيرار فرأيت شفتيه ترتعدان وهو يقول :

هيا بنا ننصرف ؛ فأنا في حاجة إلى استنشاق هواء آخر .

عند خروجنا اعتذر جيرار عن استمرار اصطحابنا ، بدعوى
معرفته لشخص في الأحياء المجاورة يريد أن يستفسر عن أحواله . فلما
أدركنا من لهجته أنه لا يليق أن نصحبه عدت مع جام إلى حيث لحق
بنا جيرار في المساء .

قال جام لجيرار بعد برهة :

- صديقي العزيز قررت ألا أروي أية قصة قبل أن تطلعنا على
هذه القصة التي تملك عليك فؤادك ، علما بأن قصص جام كانت
مبعث متعة في سهراتنا ..

قال جيرار :

يسعدني أن أروي لكما القصة التي كان القصر مسرحاً لها ، فضلاً
عن أنني لا أستطيع عرضها ، أو استعراضها كاملة ؛ لأنني أخشى ألا
أتمكن من ذلك فأسلب من وقائعها ذلك السحر الذي يغلف الألغاز ،
وكان فضولي فيما مضى يخلعه عليها .

عَقَّبَ جام قائلًا :

- لا تبالِ بنظام أو تسلسل ..

وقلت :

- ما الداعي لرواية الوقائع طبقًا للتسلسل التاريخي ، وما المانع من عرضها كما عُرِضَتْ لك ؟

قال جيران :

- هكذا تتبحر لي أن أتحدث عن نفسي كثيرا ..

ردَّ جام من فوره قائلًا :

- لا أحد منا يفعل غير ذلك .. وإليكم القصة التي رواها جيران ..

يكاد يكون من الصعب اليوم إدراك الشغف الذي كان يدفعني إلى الحياة ، كنت في الخامسة والعشرين من العمر ،

لا أدري عن الحياة شيئاً إلا عن طريق الكتب . وربما كان هذا هو السبب الذي جعلني أظن نفسي روائياً . كنت لازلت أجهل أن الأحداث تحجب عن عيوننا بالدهاء والمكر ، وذلك الجانب الذي قد يزيد من اهتمامنا بها ، وكيف أنها تستغل علينا وتمتنع إذا لم نكن نعرف كيف نفتحها .

كنت في ذلك الحين أعد لرسالة الدكتوراه عن تاريخ « حكم بوسويه » ، ولم يكن ذلك عن ميل خاص يجذبني إلى بلاغة أصحاب المنابر ، وإنما اختياري لهذا الموضوع جاء تكريماً لأستاذي الجليل « ألبير دينوس » الذي كان كتابه العظيم « حياة بوسويه » ، على وشك الصدور . وما أن علم الأستاذ دينوس بموضوع رسالتي حتى أبدى استعداداً لمساعدتي في منهجه ، وتناوله مع أقدم أصدقائه ويدعى « بنيامين فلوش » العضو في مجمع الخطوط والآداب .

هذا الصديق كان يملك وثائق تفيدني في بحثي ، خاصة نسخة من التوراة بها شرح وحواشٍ بخط بوسويه ، وكان السيد فلوش قد

اعتزل الحياة منذ خمسة عشر عامًا تقريبًا ، واعتكف في قصر الكارفورش الذي كان الناس يطلقون عليه غالبًا « كارفور » ، وهو من ممتلكات الأسرة في ضواحي « بون ليفيك » ، ولم يعد السيد فلوش يبرح هذا القصر ، ومن دواعي سروري أن « لي » استقبلني فيه ، ووضع تحت تصرفي مستنداته ومكتبته وعلمه الغزير الذي قال عنه الأستاذ دينوس إنه علم لا ينضب معينه .

وأخذ الأستاذ دينوس والسيد فلوش يتبادلان الرسائل ، وتبين أن الوثائق كانت أكثر مما توقعت في بادئ الأمر كما توقع أستاذي ، ولم يتوقف الأمر عند الزيارة فقد تحوّل إلى إقامة في القصر ، عرضها عليّ بلطف السيد فلوش بناء على توصية من الأستاذ دينوس . لم يكن للسيد فلوش وزوجته أولادًا ، ومع هذا لم يعيشا في القصر بمفردهما . كلمات صدرت عفوية عن السيد « فلوش » وتلقاها خيالي جعلتني أتوقع أن أجد في القصر صحبةً جميلةً سرعان ما اجتذبتني أكثر من وثائق القرن السابع عشر العظيم ، والمليئة بالأتربة وكأن بي أدخل القصر لا طالبًا للعلم بل مغامرًا .

حتى أنني ملأت القصر بالمغامرة قبل أن أدخله . كنت أردد اسم « الكارفوش » بغموضه وأحدث نفسي قائلًا : « هنا يتردد هرقل » .. وأعرف ما ينتظرنني على طريق الهداية والفضيلة ولكن ما الطريق الآخر ؟ .. الطريق الآخر ؟ ..

في منتصف سبتمبر تقريباً جمعت أفضل ما في دولاب ملابسي من ثياب متواضعة ، وجددت أربطة العنق ، ثم رحلت .

لما بلغت محطة « بروي - بلانجي » بين « بون ليفيك » و « ليزيو » ، كان الليل قد أسدل كل أستاره تقريباً .. كنت الوحيد الذي هبط من القطار .. أقبل قروي يرتدي زيّ الخدم ، وأخذ حقيبتني وصحبني إلى عربة كانت تقف في الجانب الآخر من المحطة . حدّ مشهد الجواد والعربة من جموح خيالي وانطلاقه ، فلا يمكن للإنسان أن يتصور منظراً أكثر فظاعة وقبحاً من هذا .. وعاد القروي الحوذي ليتسلم صندوق الأمتعة الذي كنت قد شحنته ، وتحت هذا الثقل الزائد ناءت العجلات . ومن داخل العربة فاحت رائحة خانقة شبيهة بتلك التي تفوح من عشش الدجاج .. أردت أن أفتح زجاج الباب لكن مقبض الجلي خرج في يدي .. كانت السماء قد أمطرت أثناء النهار ، فكان الطريق موحلاً ، وعند أول منحدر سقطت قطعة من طاقم الجواد فأخرج الحوذي من تحت مقعده طرفاً من جبل وتنبأ لإصلاح بحجرة العجلة . كنت قد نزلت من العربة وعرضت على الحوذي أن أمسك له المصباح الذي كان قد أشعله منذ برهة . وهنا تمكنت من أن أرى زيّ الرجل المسكين الذي أعيد رتقه كما هي حال طاقم الجواد ، فقلت له :

الجلد قديم نوعاً !



رمقني وكأنني لعنته ، وقال في لهجة تكاد تكون فظة :

- ومع هذا تمكنا لحسن حظك من المجيء للقائك ..

فسألته بصوت رقيق :

- هل المسافة تبعد كثيرا عن القصر ؟

- لم يرد بشكل مباشر ولكنه قال :

- بالتأكيد : إننا لانقطع هذه المسافة كل يوم .. ثم أضاف بعد

لحظة :

- مضت ستة أشهر تقريبا ولم تخرج العربة ..

فعقبت في محاولة يائسة لفتح باب الحوار :

- ألا ينتزه سادتك ؟

- هل تعتقد أنه ليس لدينا عملٌ غير ذلك ؟

كان قد انتهى من إصلاح الخلل فدعاني بإشارة إلى الصعود ، ثم

انطلقت العربة من جديد .

كان الجواد يجاهد في ارتقاء المرتفعات .. يتعثر ويكبو في

المنحدرات، ويعدو في السهل عدوًا خفيًا ، وفي بعض الأحيان كان

يتوقف فجأة . حدثت نفسي قائلاً : « على هذا النحو الذي نسير به

سنصل إلى الكارفور بعد أن يكون أهل القصر قد فرغوا من تناول

طعامهم ، وحتى بعد أن يكونوا قد ناموا . توقف الجواد مرة أخرى وبدأ مزاجي ينحرف . حاولت أن أرى البلدة وإذا بالعربة تنحرف - دون أن ألاحظ - عن الطريق الرئيسي وتسلق طريقاً آخر أكثر ضيقاً وأقل تمهيداً .. لم تكن مصابيح العربة تضيء يميناً ويساراً فيما عدا سياجاً متصلاً مرتفعاً وكثيفاً كان يحاصرنا ويسد علينا السبيل .. ويفسح الطريق في لحظة ، ثم لا يلبث أن يطبق من جديد بعد عبورنا ، وما أن بلغت العربة ربوة وعرة حتى توقفت من جديد .. اقترب الخوذي من الباب وفتحه ، ثم قال بكل بساطة :

- هل يتكرم سيدي بالنزول ؟ المطلع وعرب بعض الشيء على الجواد ..

وصعد بنفسه المطلع ممسكاً بزمام الجواد ، وفي منتصف المسافة التفت نحوي وكنت أسير وراءه ، وقال بنبهة رقيقة :

- وصلنا بسرعة ، انظرها هي الحديقة ..

استطعت أن أميز دغلاً كثيفاً من الأشجار ، كان يشكل طريقاً نحفةً أشجار الزان الضخمة ، سرعان ما خضنا فيه فلقينا الطريق الأول الذي كنا قد انحرفنا عنه .. دعاني الخوذي إلى صعود العربة مرة أخرى ، وسرعان ما بلغنا الباب الحديدي فتسللنا إلى الحديقة .

كان الليل من السواد بحيث لم أستطع أن أتبين شيئاً من واجهة القصر .. أوصلتني العربية أمام سلم يتكون من ثلاث درجات، ارتقيتها مبهوراً من ضوء المشعل الذي كانت تحمله في يدها وتسلطه نحوي امرأة خالية من معالم السن وملامح الجمال ، سمينة الجسم متواضعة الثياب .. حيّتي تحية مفعمة بالجفاء ، فانحنيت لها وقلت متردداً :

- مدام فلوش بالطبع !

بل الأنسة فيردور ، السيد فلوش وزوجته ناثان ويعتذران عن عدم حضورهما لاستقبالك ، فالناس هنا يتناولون عشاءهم مبكراً ..

- وأنت يا آنستي هل جعلتك تسهرين حتى ساعة متأخرة ؟

قالت دون أن تلتفت إليّ :

- أوه ! أما أنا فقد اعتدت ذلك ..

كانت قد سبقتني إلى الممر فقالت :

- أعتقد أنك لا تمنع في تناول شيء ما !

- الحق أني لم أتناول عشاءني ..

أدخلتني حجرة طعام شاسعة أعدت فيها وجبة عشاء دسمة مثل تلك الوجبات التي تعقب الصوم ..

الفرن مُطْفَأ في هذا الوقت ، وفي الريف على الإنسان أن يقنع بما يجده ..

قلت وأنا أجلس إلى المائدة أمام صحن من اللحم البارد :
- لكنني أجد أن هذا عظيم !

جلست منحرفة على مقعد بالقرب من الباب ، وطوال تناولي الطعام ظلت خافضة الرأس ، وحاولت مرات كلما انقطع خيط الحديث أن أعذر لها عن استبقائي لها إلى جوارتي ، ولكنها جعلتني أدرك أنها تنتظر حتى أنتهي من عشاءتي لترفع المائدة .

- لو انصرفت أنا فكيف ستعرف حجرتك ؟

تعجلتُ وأكلتُ بسرعة ، وإذا بباب الممر يفتح ويدخل منه قس أشيب الشعر صارم الوجه لكنه لطيف .. أقبل نحوي وهو يمد يده قائلاً:

- لم أشأ أن أرجع إلى الغد الاستمتاع بتحية ضيفنا ، ولم أنزل إليك قبل الآن لأنني كنتُ أعلم أنك تتبادل الحديث مع الأنسة أوليمب فيردور .

قال ذلك وهو يوجه إليها ابتسامة خبيثة ، بينما كانت هي تزم شفيتها وتبدي سحنة خشنة ، واستطرد يقول بينما كنت أغادر المائدة :

- الآن وقد انتهيت من طعامك فستترك الأنسة أوليمب هنا لتعيد النظام إلى المكان . وأعتقد أنها ترى من اللائق أن تكل إلى رجل أمر

اصطحاب السيد لاكاز إلى حجرة نومه ، وأن تنازل عن مهام
وظيفتها في هذا الشأن .

انحنى أمامها باحترام متكلف فحيته بطريقة مقتضبة :

- أوه ! أتنازل لك يا سيدي القس .. أنا كما تعلم أتنازل دائما .. ثم
استطردت وقد عادت إلينا فجأة :

- كنت ستسبني أن أسال سيدي لاكاز عما يتناوله في الإفطار ؟

- ما تشائين يا آنستي .. ماذا تتناولون هنا عادة؟

- كل شيء .. أعد الشاي للسيدات ، والقهوة للسيد فلوش ،
والحساء لسيدي القس ، ومشروب خاص للسيد كازيمير .

- وأنت يا آنستي ألا تتناولين شيئا ؟

- أوه ، أنا أتناول القهوة باللبن فحسب .

- لو سمحت سأتناول معك قهوة باللبن .

- فقال القس وهو يمسك ذراعي :

- هيه ! هيه ! حاذري يا آنسة فيردور يبدو لي أن السيد لاكاز

يغازلك!

- هزت كتفيها ، ثم حيّنتي تحية سريعة بينما القس يسحبني معه ..

كانت حجرتي تقع في الطابق الأول في نهاية الممر .

قال القس وهو يفتح باب حجرة كبيرة تضيئها نار المدفأة :

- عفوك اللهم وغفرانك ، لقد أوقدوا لك نارا .. ربما تكون في غنى عنها .. صحيح أن الليل في هذه البلدة يكون رطبا ، وفصل الشتاء هذا العام غير عادى .

كان قد اقترب من المدفأة فمدّ لها راحته العريضتين محوّلًا وجهه عنها .. وكأنه عابد يدفع عن نفسه محاولات الإغراء ، وكان استعداداه للحديث يبدو لي أكثر من استعداداه لتركي لكي أنام .

بدأ حديثه قائلا وقد رأى صندوقي وحقيبتني :

- آه ، أحضر لك جراسيان أمتعتك !

سأله قائلا:

- جراسيان هو ذلك الحوذي الذي صحبني ؟

- وهو أيضا البستاني ؛ لأن أعماله كحوذي قلما تشغل وقته ..

أخبرني بالفعل أن العرب لا تخرج كثيرا ..

خروجها يعتبر حدثا تاريخيا . ثم إن السيد دي سان أوربول لم يعد يملك جيادا منذ زمن بعيد ، ولذلك ففي المناسبات الكبرى مثل هذه الليلة نستعير جواد المزارع ؛ فرددت مندهشا :

- السيد دي سان أوربول ؟

- أجل أعرف أنك جئت للقاء السيد فلوش ، ولكن قصر الكارفوش ملك لشقيق زوجته ، وغداً ستشرف بمعرفة السيد دي سان أوريول وزوجته .

- ومن هو السيد كازيمير الذي لا أعرف عنه غير أنه يتناول مشروباً خاصاً في الصباح ؟

- حفيدهما وتلميذي ، شاء الله أن أقوم بتعليمه منذ ثلاث سنوات .. قالها وهو يغمض عينيه في خشوع ، وكأن الأمر يتعلق بأختك فيفيل ..

سألته قائلاً :

- أبواه هنا ؟

- لا على سفر .. ضغط على شفّتيه بقوة ، ثم قال من فوره :

- أنا أعرف يا سيدي أي دراسات نبيلة مقدسة جاءت بك ..

قاطعته من فوري ..

- أوه ! لا تبالغ في قدسيّتها ، إنها لا تمهني إلا من وجهة نظر المؤرخ ..

قال وهو يبعد يده كل فكرة غير طيبة :

- لا يهم ؛ للتاريخ أيضاً حقوقه .. ستجد في السيدة فلوش أرق مرشد وأكبر دليل .

- هذا ما أكدته لي أستاذي دينوس ..

- آه وأنت تلميذ البير دينوس ؟

ضفط على شفثيه من جديد .. تجرأت ، ووجهت إليه هذا السؤال :

- هل درست على يديه ؟

ردّ بجفاء :

- كلاً ، ما أعرفه عنه جعلني ألتم الحذر .. إنه مغامر فكري ، وفي

مثل سنك ينجذب المرء بسهولة لما يشذ عن المألوف ، ولما لم أجب بشيء قال :

- كان لنظرياته بعض التأثير على الشباب ، ولكن الناس بدأوا

يفيقون منها مثلما بلغني .

كانت رغبتني في الجدال أقل من رغبتني في النعاس ، ولما وجد أنه

لن يحصل مني على إجابة ، استطرد قائلاً :

- سيكون السيد فلوش خير ناصح لك ، ثم قال بعد تشاؤم لم

أملك إخفاءه :

- الوقت متأخر غداً ، لو أردت يمكننا أن نجد وقتاً كافياً

لاستئناف الحديث ، فلا بد أنك مرهق بعد هذا السفر .

- الحق يا سيدي القس أن النعاس يهديني .

ما إن غادر الحجرة حتى رفعت الخطب من المدفأة ، وفتحت

النافذة على مصراعيها الخشبيين ، فإذا بهبة ريح خفيفة تراقص لهب

شمعتي فأطفأتها لي .. أتأمل الليل .. كانت حجرتي تفضي إلى الحديقة، ولكنها لا تطل على واجهة القصر شأن حجرات الممر الست ، وأنها تتمتع بمظهر يمتد فيه مدى البصر أطول وأبعد .. سرعان ما أوقف نظرتي مجموعة من الأشجار لا يكاد يظهر فوقها إلا جانبٌ ضئيل من صفحة السماء .. كان الهلال قد لاح فيها منذ قليل ، ثم لم يلبث أن غاب تحت الغمام .. كانت السماء قد أمطرت من جديد ، وكانت الأغصان لا تزال تقطر ماء .

حدثت نفسي وأنا أعيد غلق النوافذ :

- هذا جو لا يدعو للبهجة .

أمام هذا التأمل الخاطف سرت الرعدة في نفسي أكثر مما سرت في جسدي ، فأعدت الحطب إلى المدفأة ، وأزكيت النار وسعدت عندما عثرت في فراشي على جرة ماء دافئ .. لاشك أن الأنسة فيردور دستها فيه بحسّ رعايتها وعنايتها .

بعد برهة لاحظت أني نسيت وضع حذائي خارج الحجرة فنهضت وخرجت للحظة إلى الممر .. رأيت في الطرف الآخر من الدار الأنسة فيردور ، كانت حجرتها تقع فوق حجرتي .. تبينت ذلك من خطواتها الثقيلة التي شرعت بعد قليل تنزل السقف من فوقي، ثم أطبق صمت عميق ، وبينما كنت أستغرق في النوم رفعت الدار مراساتها لتجتاز رحلة الليل البحرية .

استيقظت مبكرا على صوت ضوضاء صادرة من المطبخ ،
وكان أحد أبوابه يفتح على نافذتي مباشرة . وعندما دفعت

مصراعني النافذة سعدت برؤية سماء صافية ، أما الحديقة التي لم
تكن قد جفت تماما من آثار وابل مطر حديث ، فكانت تتلأأ بينما
يميل الجو إلى الزرقة . وعندما هممت بإغلاق النافذة إذا بي أرى طفلا
ضخما يخرج من بستان الخضر اواك ويهرول نحو المطبخ .. كان من
العسير تحديد عمره ، لأن وجهه يبدو أكبر من جسمه بثلاث أو أربع
سنوات . كان مشوها معوجا وساقاه الملتويتان تجعل مشيته غريبة ؛
فهو يتقدم بانحراف أو يسير قفزا كأنها تلتوي ساقاه كلما سار خطوة ..
كان هو كازيمير تلميذ القس ، وكان يلزمه كلب ضخمة يشب معه
ويحتفل به كان الصبي يحاول أن يحمي نفسه من مغبة هوسة الكلب
المربكة ولكنه ما إن كاد يبلغ المطبخ حتى أوقعه الكلب فهوى في
الوحد . وهنا هبت إليه سيدة بدينة قامت بإنهاضه وهي تقول :

آه ، هل يرضى الله ما تصنعه بنفسك ! .. وكم نصحناك بترك «ترنو»
في العربة .. هيا ! تعال من هنا لكي أنظفك .

وسحبته إلى المطبخ .. في هذه اللحظة سمعتُ طرقاً على باب حجرتي.. خادمة تحمل ماء ساخناً للاغتسال ، بعد ربع ساعة رن الجرس معلناً موعد الفطور ، وعندما دخلت حجرة الطعام ، قال القس وهو يتقدم نحوي :

- مدام فلوش أعتقد أن ضيفنا الطيب قد وصل .

كانت مدام فلوش تنهض من مقعدها ، ولكنها لم تبدو أطول وهي جالسة .. انحنيت أمامها بشدة فحيّني بشكل خاطف ؛ ربما تكون قد تلقت في فترة من حياتها ضربة قوية فوق رأسها فظل الرأس غائراً بين كتفيها بطريقة لا تعالج .. وكان السيد فلوش قد وقف إلى جوارها ماداً يده مرحباً بي . كان العجوزان متماثلين في الطول والملبس والسن والجسم .. ظللنا لحظات نبادل التحيات والمجاملات المتشابهة ونحدث في وقت واحد ، ثم ساد صمت رهيب عندما وصلت الأنسة فيردور تحمل إبريق الشاي .

قالت مدام فلوش التي لم تستطع أن تدير رأسها فتوجهت إلينا بكل نصفها العلوي :

- صديقتنا الأنسة أوليمب كانت تتحرق لتعرف هل هنتت في نومك ، وهل أراحك الفراش ؟

- فأجبت بأنني نمت هائناً حقاً ، وأن جرة الماء الدافئ التي وجدتها في الفراش أفادتني كثيراً .

خرجت الأنسة فيردور بعد أن قدّمت لي التحية :

- في الصباح ألم ترعجك ضوضاء المطبخ ؟

كررت النفي فقالت مدام فلوش :

- يجب أن تقدّم شكواك ، أرجوك لأن ما من أمر أسهل علينا من أن نعد لك حجرة أخرى ..

ودون أن يقول السيد فلوش كلمة ، كان يهز رأسه بانحراف ، ويؤيد بابتسامة كل عبارة تنفّوّه بها زوجته ، فقلت :

- إنني أرى جيدًا أن الدار رحة ، ولكنني أؤكد لكم إنني لا يمكن أن ألقى مقامًا خيرًا من مقامي هنا .

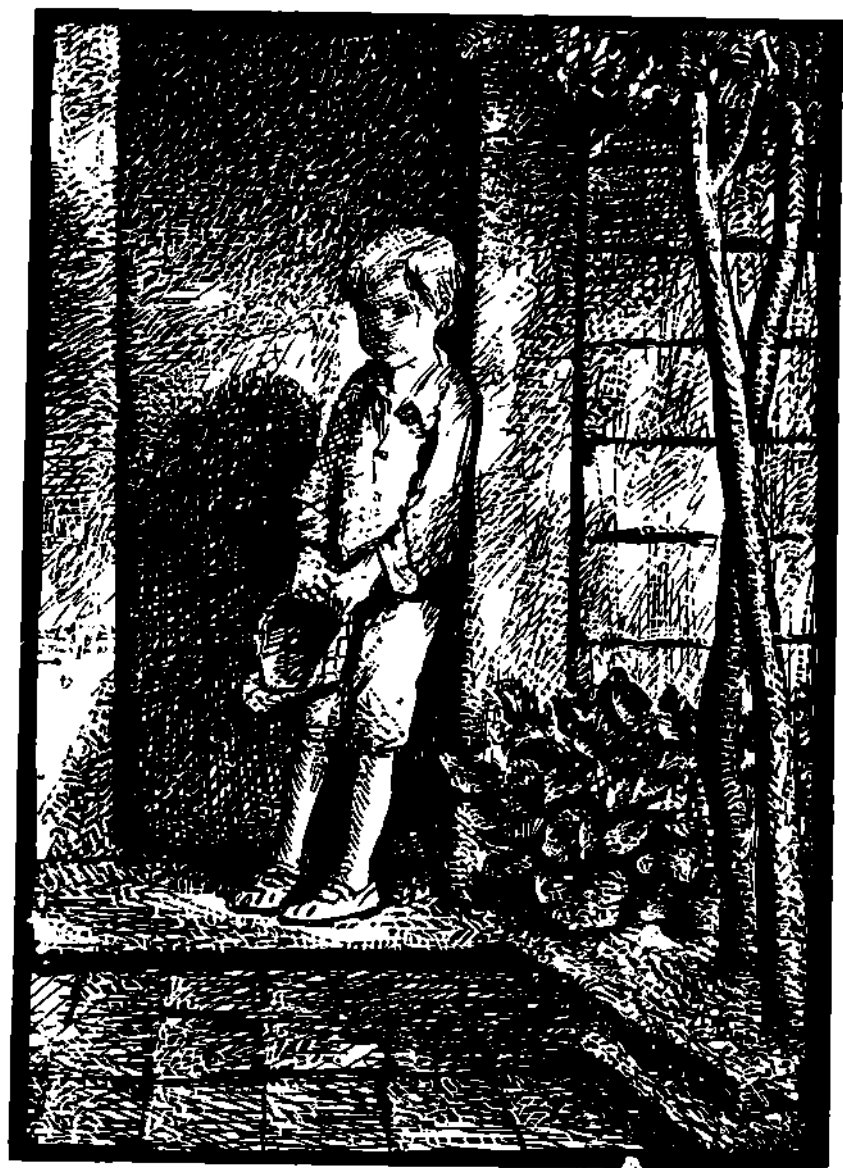
قال القس :

- السيد فلوش وزوجته يجبان تدليل ضيفيهما .

جاءت الأنسة أوليمب بصحن خبز مقدد ، فدفعت أمامها ذلك الكائن الذي كنت قد رأيته ينقلب على رأسه منذ قليل .. جذبه القس من ذراعه قائلاً :

- هيا ياكازيمير أنت لم تعد طفلًا صغيرًا .. تقدم لتحية السيد لاكاز كما يفعل الرجال ، مُد يدك .. أنظر أمامك . التفت القس نحوي ، وقال كأنه يجد له العذر :

- لم يَألف بعد عادات المجتمع .



أخرجني حياء الطفل ، فسألت مدام فلوش متجاهلاً المعلومات
التي أمدني بها القس بالأمس :

- أهو حفيدك ؟

أجابت قائلة :

- حفيد شقيقتي .. سترى فيما بعد شقيقتي وزوجها أي جدية .

حاولت الأنسة فيردور أن تفسر موقف الطفل فقالت :

- لم يكن يجرؤ على العودة ؛ لأنه كان قد لَوَّث ثيابه بالوحل وهو
يلعب مع ترنو .. فقلت وأنا ألتفت نحو كازيمير ببشاشة وود :

- ما ألطفه من لعب ، كنت أنظر من النافذة عندما أوقعك
الكلب .. أو لم يصبك بسوء ؟

قال القس موضحاً بدوره :

- يجب أن نخبر السيد لاكاز أن الطفل لا يجيد الاتزان تماماً .

يا إلهي .. لقد لاحظت ذلك بنفسي دون حاجة لأي توضيح ،
وفجأة أصبح هذا القس الضخم ذو العينين المختلفتين اللون بغیضا
إلى نفسي .

لم يجب الطفل على سؤالي ، غير أن وجهه احمرَّ خجلاً .. ندمت على
سؤالي فربما يكون قد حمل تلميحا إلى عاهته . كان القس قد غادر

المائدة بعد أن فرغ من تناول حسائه فأخذ يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ، وكان عندما بمسك عن الكلام يضغط على شفثيه بحيث تصبح شفثيه العليا نتوءاً أشبه بشفة الكهل الأدرم .. توقف خلف كازيمير ، بينما كان الأخير يفرغ قدحه ، قال القس :

- هيا هيا .. أيها الفتى ابن زهير في انتظارنا .. فنهض الفتى وخرج الاثنان .

وما إن انتهى الفطور حتى بادرنى السيد فلوش بقوله :

- تعال معي إلى الحديقة أيها الضيف الشاب لتزدني من أخبار باريس .

كانت لغة السيد فلوش تزدهر مع الفجر ، ودون أن ينصت كثيراً إلى إجاباتي أخذ يسألني عن صديقه جاستون وعن دراساتي .. لم أحدثه إلا عن مشروعاتي الأدبية بالطبع ، ولم أكشف له عن نفسي إلا الجانب الخاص بالسوربون ، ثم شرع يقص تاريخ الكارفورش الذي لم يبرحه تقريباً منذ خمسة عشر عاماً ، وتاريخ الحديقة وتاريخ القصر ، وأرجأ إلى حين تاريخ الأسرة التي كانت تسكن القصر قبله ، ولكنه بدأ يروي لي كيف حصل على مخطوطات القرن الثامن عشر التي يمكن إن تهمني في بحثي .. كان يسير إلى جوارى في خطى قصيرة مسرعة ولاحظت أن سرواله منخفض بحيث يكاد يسقط على قدمه ، ولكنه مرفوع من الخلف إلى أعلى الحذاء ، ولا أدري كيف

استطاع أن يحافظ عليه في هذا الوضع؟! لم أعد أنصت إليه إلا بأذان شاردة ، فكان تفكيري خاملا من تأثير الجو الغائر ، ويفعل ما يشبه التخدير النباتي . وبينما كنا نسير على هذه الحال في طريق تحف به أشجار الكستناء العالية التي تشكل قبوا فوق رؤوسنا أدركنا آخر الحديقة . وهناك وجدنا مقعدا يحميه من الشمس سائر من الأشجار الظليلة ، فدعاني السيد فلوش إلى الجلوس ، وقال فجأة :

- هل أخبرك القس سانتال بأن صهري به شيء من الـ...؟

لم يكمل ولمس جبهته بسبابته ..

بلغ ذهولي حدًا لم أجد معه ما أجيب به ، فاستطرد قائلا :

- نعم البارون دي سان أوريول صهري ، ربما لم يخبرك القس بذلك كما لم يخبرني ، ولكنني أصبحت على علم بأنه يعتقد ذلك كما أعتقد ... وبالنسبة لي ، ألم يخبرك القس بأن بي شيئا من الـ...

- أوه ، سيدي فلوش كيف تظن أن ...

فقال وهو يربت على يدي بلا كلفة:

- ولكن يا صديقي الشاب لو صح ظني فإنني أجده شيئا طبيعيا.. ماذا تنتظر ؟ لقد اعتدنا هنا أن نعتزل العالم ، نكاد نكون بمنأى عما يجري فيه .. لا شيء يحمل إلينا الـ .. التغيير .. كيف أعبر ؟ نعم ، لقد كنت لطيفاً إذ جئت لزيارتنا .

فلما حاولت أن آتي بحركة ، عاد يقول :

- أعيدها ثانية كنت لطيفا إذ جئت ، وسأقول هذا المساء لصديقي
القدير دينوس ، وقد يترأى لك أن تطلعني على ما يجيش بصدرك من
موضوعات ، وما يضطرب له فكرك من مسائل ، وما يستحوذ على
اهتمامك من مشكلات .. أنا على ثقة بأنني لن أدرك شيئا مما ستقول ..
بماذا كنت أستطيع أن أجيب ؟ رحت أخط في الرمال بطرف عصاي
فاستطرد يقول :

- كما ترى ، فقدنا اتصالنا بالعالم الخارجي تقريبا ، كلا كلا
لا تعترض ؛ فلن يجدي ذلك شيئا .. البارون أضخم ، ولكنه مُدَّعٍ
بحيث يحاول أن يداري صممه ، وهو يفضل أن يتظاهر بالسمع على
أن يطلب من محدثه أن يرفع صوته . أما بالنسبة لي فإنني فيما يتعلق
بالأفكار التي تشغل العالم اليوم فيبدو لي أنني لا أقل عنه صمما ، ومع
كلّ فإنني لا أجد غضاضة في ذلك ، بل لا أحاول أن أبذل مجهودا
كبيرا حتى أفهم . انتهى الأمر بي من جراء عشرين لما سيون ومسويه إلى
الاعتقاد بأن المشكلات التي كانت تؤرق هاتين العقليتين تعادل في
جمالها وأهميتها تلك المشكلات التي كنت شغوقاً بها في مطلع شبابي ..
مشكلات ربما لم تكن تفهمها هاتان العقليتان .. كما إنني لا أفهم تلك
المشكلات التي تستهويك اليوم .. لذلك لو تكرمت يا زميل المستقبل
فإنني أفضل أن تحدثني عن دراستك ، مادامت هي أيضًا دراستي ،

ولا تؤاخذني إذا لم أسألك عمن تحب من الموسيقيين والشعراء
والخطباء ، ولا عن نظام الحكم الذي تفضله .

نظر إلى ساعة مستديرة تتعلق بشريط أسود ، وقال وهو ينهض
واقفا:

- فلنعد الآن ، إنني أعتبر نهاري ضائعا إن لم أباشر عملي في
العاشرة ، فمددت له ذراعي فتناولها .. ولما كنت أتمهل في سيرتي
أحيانا من أجله كان يقول :

- فلنسرع ! فلنسرع ! ما أشبه الأفكار بالأزهار .. كانت مكتبة
الكارفورش تتألف من حجرتين ، يفصل بينهما ستار بسيط ، وكانت
إحدهما شديدة الضيق يصعد المرء إليها بواسطة ثلاث درجات ،
وكان السيد فلوش يعمل فيها وهو يجلس إلى مكتب أمام نافذة لا تطل
على شيء ؛ بسبب وجود درذارة تمد أغصانها حتى تلامس زجاج
النافذة . وكان يوجد على المكتب مصباح عتيق له خزان يعلوه غطاء
أخضر من الخزف ، وتحت المكتب حشية لتدفئة القدمين . وفي أحد
الأركان موقد صغير ، وفي الركن الآخر مكتب آخر محمل بالمعاجم ،
وبينهما خزانة تستخدم كرف لحمل الأوراق . أما الحجرة الثانية فقد
كانت فسيحة ، بها كتب تغطي الجدار وتصل حتى السقف ، وكان بها
نافذتان ومكتب كبير في الوسط .

قال لي السيد فلوش :

- هنا سيكون مقامك .

فلما صحت معترضًا ! .. قال :

- كلا ، كلا أنا اعتدت على الخلوة ، والحق أقول إنني أجد فيها راحتي بلا غضاضة ، وإذا شئت أسدلت الستار حتى لا يضايق أحدنا صاحبه .

- قلت معارضا : أوه ! ليس من أجلي أنا ، فإذا كنت أشعر حتى الآن بضرورة الانفراد أثناء العمل . فإنني لا ..

عقب مقاطعًا :

- إيه ، حسنًا ! سنتركه إذا مرفوعًا ، ومن ناحيتي سأجد متعة كبيرة في أن ألمحك بطرف عيني .

وبالفعل ما كنت أرفع رأسي عن عملي في الأيام التالية إلا وألتقي بنظرة الرجل الطيب الذي يتسم لي وهو يهز رأسه خشية أن يضايقني أو يحول عينيه عني ويتظاهر بالانغماس في القراءة ، وسرعان ما اهتم فوضع تحت تصرفي كل ما أحтаجه من كتب ومخطوطات ، وكان معظمها موجودًا على رف الحجرة الصغيرة ، وكانت تفوق في عددها وأهميتها ما ذكره لي الأستاذ دينوس ، وكان لابد لي على الأقل من أسبوع كامل لكي أنقل البيانات القيّمة التي أعثر عليها بين ثناياها .

وأخيرًا فتح السيد فلوش خزانة غاية في الصغر ، كانت بجوار الرف وأخرج منها نسخة الكتاب المقدس الشهيرة التي كان يملكها بوسويه والتي كان قس مدينته ، قد خطّ عليها أمام الآيات التي أصبحت متونا تواريخ إلقاء العظمت التي أوحى له بها تلك الآيات .. ودهشت لأن ألبير دينوس لم يستفد من هذه البيانات في أبحاثه .. ولكنني علمت من السيد فلوش أنه لم يحصل على هذا الكتاب إلا منذ وقت قصير .

استطرد قائلا :

- لقد كتبت فعلا مذكرة بشأنها ، وإني أهني نفسي الآن ، لأنني لم أخبر أحدا بها ، فستفيدك في رسالتك بما فيه من جدة وطلاقة .

اعترضت مرة أخرى بقولي :

- كل ما لرسالتي من قيمة وفضل ، أدين به لفضلك فهل تتكرم يا سيد فلوش وتقبل مني أن أهديها لشخصك كدليل بسيط على عرفاني بالجميل ؟

ابتسم ابتسامة يشوبها الحزن :

- عندما يكون الإنسان موشكًا على فراق الدنيا ، فإنه يتسم راضيًا .. هذا ما يحقق له بعض الخلود .

وجدت أنه ليس من الذوق في شيء أن أتمادى في هذا الشأن ، وإذا به يستطرد بقوله :

- الآن .. عليك بالاستيلاء على المكتبة ولا تكثرت بوجودي إلا عندما تريد أن تستفسر مني عن شيء . خذ ما تحتاجه من أوراق .. إلى اللقاء .

وبينما كنت أنظر إليه مبتسما ، وأنا أهبط الدرجات الثلاث أشار بيده قائلا :

- إلى اللقاء !

فقلت إلى الحجرة الكبيرة الأوراق التي تمثل باكورة عملي . ودون أن أبتعد عن المكتب الذي كنت أجلس إليه تمكنت من رؤية السيد فلوش في حجرته الصغرى ، وتحرك لحظات ليفتح بعض الأدراج ، ثم يغلقها من جديد ، ويخرج بعض الأوراق ، ثم يعيدها إلى مكانها متظاهرا بالانشغال - وتبين لي حقا أنه كان في غاية الاضطراب ، أو على الأقل مُحَرَّجًا بسبب وجودي ، فإن أقل خلل في تلك الحياة المنظمة غاية التنظيم يمكن أن يخل باتزان التفكير .. وأخيرا استقر إلى مكتبه وغاص حتى منتصف ساقيه في الحشية ولم يعد يبدي حراكا .

بالنسبة لي ، كنت أظاهر بالانهاك في العمل إلا إنني وجدت مشقة كبرى في السيطرة على تفكيري .. بل لم أحاول ذلك فقد كان تفكيري مركّزا على الكارفورش ، وكأنه يحوم حول برج قصر محاولا اكتشاف

مدخله .. كل ما كنت أحاول أن أقنع به نفسي هو أنني فطن ذكي ،
وكنت أحدث نفسي قائلًا :

صديقي أيها الروائي ، سترى وأنت أمام التجربة الوصفَ !آه ، آه !
ليس الوصف هو المهم الآن ، وإنما المهم هو الكشف عن المخبر تحت
المظهر .. لو غفلت عن أية حركة ، أو أية لفظة دون أن تجد لها التفسير
النفسي والتاريخي الكامل ، فأنت لا تعرف مهنتك .

نظرت نحو السيد فلوش وكان يعرض لي من جانب فرأيت أنفا
ضخما لا يعبر عن شيء ، وحاجبين كثيفين وذقنا حليقا لا يكف عن
الحركة ، كان صاحبه يمزغ تبغا .. وفكرت في أن ما من شيء يضيفي
الغموض على وجه الإنسان مثل قناع الطيبة الذي يغلفه .

وإذا بجرس الغداء يفاجئني ، وأنا غارق في هذه الخواطر .

على هذا الغذاء قدمني السيد فلوش دون سابق إنذار إلى السيد سان أوريول وزوجته . وكان في إمكان القس أن

يخطرني بذلك مساء أمس . وأتذكر أنني فيما مضى شعرت بنفس الدهشة عندما شاهدت لأول مرة في حديقة النباتات طائر النمام أو طائر الغواص . ولا أعرف أيهما كان أكثر غرابة من الآخر البارون أم البارونة ، فهما زوجان متماثلان مثل السيد فلوش وزوجته ، ولو قدر لهما أن يوضعا في أحد المتاحف . لوضعا متجاورين بلا تردد خلف واجهة زجاجية قريباً من « الأنواع المنقرضة » . شعرت نحوهما في البداية بإعجاب غامض من ذلك الذي نشعر به أمام التحف الفنية الرائعة ، أو أمام عجائب الطبيعة ، والذي يتركنا للوهلة الأولى ذاهلين عاجزين عن تحليله . ولم أتمكن كذلك من تحليل انطباعي إلا بعد نظر وتأمل ..

كان البارون نرسي دي سان - أوريول يرتدي سروالاً ، قصيراً ، ويتعل حذاء بأبزيم بارز ورباط عنق من مادة الموسيلين ، بينما تفاحة عنقه تماثل ذقنه في بروزها ، بحيث تخرج من فتحة الياقة محاولة التخفي تحت ثنايا وشاح منتفخ من الموسيلين هو الآخر ، وكان ذقنه

عندما يتحرك فكه يبذل مجهودا كبيرا ليتصل بأنفه الذي يحاول تحقيق ذلك ، وإحدى عينيه كانت مسدودة تماما . أما الأخرى فكان طرف الشفة يهفو إليها بينما تتجه نحوها كل ثنایا الوجه فقد كانت تومض في صفاء قابعة خلف الوجنة ، كأنها تقول : حذارِ أنا وحيدة ، ولكن ما من شيء يفلت مني .

أما زوجته مدام دي سان - أوريول فكانت تختفي تماما في فيض من نسيج الدانتيل الزائفة ، وكانت يداها الطويلتان المثقلتان بالخواتم الضخمة ترتجفان وهما قابعتان في جوف كميها . أما وجهها فقد كان متدثرا في شبه كساءٍ طويل من الحرير الأسود المبطن بشرائط من الدانتيل البيضاء .. تحت الذقن عقدت عصابتان من الحرير اكتسبتا اللون الأبيض من أثر المسحوق المتساقط من وجهها الذي أسرفت في نشره بطريقة فظيعة . وعندما دخلت نهضت واستقرت أمامي بجانبها ، وطرحت رأسها إلى الوراء ، ثم نظقت بصوت مرتفع خال من التنغيم :

- جاء زمن يا شقيقتي كان الناس فيه أكثر احترامًا وتقديرًا لاسم سان - أوريو .

ساخطة على من ؟ لابد وأنها تريد أن تشعرني أمام شقيقتها أنني لا أقيم عند آل فلوش ؛ لأنها واصلت وهي تميل برأسها جانبًا في لطف واضح وترفع يمناها في تحدٍّ قائلة :

- يسر البارون كما يسرني أن نستقبلك يا سيدي على مائدتنا ،
طبعتُ قبلة على خاتم بيدها ووقفتُ بعد القبلة وأنا أشعر بالخجل ،
لأن وضعي بين آل فلوش ، وآل سان - أوربول بدا مُحرجًا . إلا أن
مدام فلوش لم يبد أنها أعارت قول شقيقها أي اهتمام ، أما البارون
فكنت أرتاب في حقيقة أمره على الرغم من أنه كان لطيفًا معي .
وطول إقامتي في الكارفورش لم يستطع أحد أن يقنعه بأن يناديني بغير
السيد لاسي كازه الأمر ، الذي كان يتيح له أن يؤكد أنه طالما رأى
أهلي في النويلوري ، وبخاصة عمي الذي كان يلعب معه لعبة الورق .
- آه ! كان ظريفًا ! كان كلما ألقى بورقة رابحة صاح بأعلى صوته :
دومينو !

أحاديث البارون كانت كلها على هذا المستوى تقريبًا .. وعلى المائدة
كان هو الوحيد الذي يتحدث ، وبعدها وما إن ترفع المائدة كان يخلد
إلى الصمت الشبيه بصمت المومياء .. وعندما غادرنا حجرة الطعام
اقتربت مني مدام فلوش وهي تهمس قائلة :

- هل يسمح لي السيد لاکاز بحديث قصير ؟

فبدالي أنها لم تكن ترغب في أن يستمع أحد إلى هذا الحديث ، لأنها
جذبتني إلى ناحية بستان الخضر اوات ، وهي تقول بصوت مرتفع أنها
تريد أن تريني صفا من الأشجار المعروشة على الجدار .

ما إن تأكدت أن أحدا لا يسمعها بدأت حديثها قائلة :

- حديثي معك خاص بحفيدنا .. أنا لا أريد أن أبدو في نظرك
منتقدة لتعليم القس سانتال ، ولكنك وأنت تغوص في مصادر الثقافة
نفسها (هكذا قالت) يمكنك أن تقدم لنا النصح في هذا الشأن .

- قولي يا سيدتي .. وثقي في إخلاصي .

- إذا اسمع أخشى أن يكون موضوع رسالته بالنسبة لصبي مثله
له شيء من التخصص .

استفسرت بشيء من الحرج :

- أية رسالة ؟

- الرسالة التي يتقدم بها لشهادة البكالوريا .

عدت أقول وقد أثرت ألا أندعش لشيء :

- آه ! بالضبط .. وما موضوعها ؟

- هو هذا .. الأب يخشى أن يكون من شأن الموضوعات الأدبية ،
أو الفلسفية البحتة أن تزيد من حدة هيام عقلية صبي يميل بطبعه
للأحلام .. هذا جانب من مخاوف الصبي ، ولذلك فقد حدا بكازيمير
إلى اختيار موضوع تاريخي .

- ولكن هذا الرأي يا سيدتي يقوم على أساس قوي ، والموضوع
الذي وقع عليه الاختيار ، ما هو ؟

- أرجو المَعذرة ، فأنا أخشى أن أحرف الاسم : « ابن رشد » .

- القس طبعا لديه من الأسباب ما جعله يختار هذا الموضوع الذي يبدو لأول وهلة موضوعا متخصصا بعض الشيء .

- اختاراه معا .. أما عن الأسباب التي يذكرها القس ليبرر الموضوع فتضمن جاذبية قصصية من شأنها أن تثير اهتمام كازيمير الذي يشرد كثيرا ثم يبدو أن السادة الممتحنين يعلقون على هذا أهمية كبيرة ؛ فالموضوع لم يسبق أن تناوله أحد من قبل - فعلا - .

- طبعي أن المرء لكي يطرق موضوعا لم يسبق لغيره أن تناوله ، يجد نفسه مضطرا إلى الخوض في طرق غير مهيمة .

- طبعا .

- إلا أنني أعترف بأن هناك ما يدعو للقلق ، ولكنني لن أكون مغالية !

- سيدتي أتوسل إليك أن تثقي في أن صدق إخلاصي ورغبتني في خدمتك لا حدود لها .

- حسن ! لا أشك في أن كازيمير لديه من الكفاءة ما يؤهله في القريب من التفوق في امتحان رسالته ، ولكنني أخشى أن تكون رغبة القس في التخصص وهي رغبة سابقة لأوانها تجعله يهمل إلى حد ما الثقافة العامة كالحساب والفلك على سبيل المثال ..

فسألت وأنا في ذهول :

- وما رأي السيد فلوش في كل ذلك ؟

- أوه ! السيد فلوش يؤيد كل ما يفعل القس أو يقول .

- والوالدان ؟

- لقد عهدا إلينا بالصبي . قالتها بعد تردد ما ، ثم أضافت وقد

توقفت عن السير :

أرجوك يا سيد لاكاز أن تتكرم بالحديث إلى كازيمير لكي تطلع على أمره دون أن يبدو أنك تقصد ذلك .. وليكن في غير وجود القس ، فقد يرتاب في الأمر وأنا على ثقة أنه بوسعك ..

- بكل سرور يا سيدتي .. لن أعدم الوسيلة لاختلاق سبب للخروج مع الحفيد . سيقوم مثلا باصطحابي في زيارة لركن ما من أركان الحديقة ..

- هو يبدو خجلا مع مَنْ لا يعرفهم إلا أن الثقة من طبعه .

- لا أشك في أننا لن نلبث أن نصبح صديقين حميمين .

وبعد قليل جمعتنا وجبة العصر مرة أخرى ، فقالت مخاطبة كازيمير :

- كازيمير ، عليك باصطحاب السيد لاكاز ليرى المحجر ، فأنا واثقة من أنه سيثير اهتمامه ، ثم قالت وهي تقترب مني :

- انطلقا بسرعة قبل أن ينزل القس فقد يرغب في مرافقتكما ، وعلى الفور خرجت إلى الحديقة يقودني الصبي وهو يعرج ؛ فبدأت قائلاً :
- هذا وقت الفسحة .

فلم يجب ؛ فاستطردت قائلاً :

- ألا تفعل شيئاً بعد تناول طعام العصر ؟

- أوه : بلى ، ولكن اليوم لم يعد لديّ ما أنسخه .

- وما الذي تنسخه ؟

- الرسالة .

- آه !

وبعد محاولات من الاستفسار فهمت أن هذه الرسالة هي عمل خاص بالقس ، وهو يستغل الصبي في تبييضها ونسخها لوضوح خطه وسلامته . وكان الصبي يقوم بكتابة أربع نسخ من الرسالة في أربع كراسات مغلقة ، يملأ منها كل يوم بضع صفحات . إلا أن كازيمير أكد لي أنه يجد متعته في قيامه بعملية النسخ .

- ولكن ، لماذا تكتب أربع نسخ ؟

- لأنني أجد مشقة في الاستظهار .

- وهل تفهم ما تكتبه ؟

- أحياناً ، وأحياناً أخرى يشرح لي القس ، أو يقول إنني سوف أفهم عندما أكبر .

كان القس بكل بساطة قد جعل من تلميذه ما يشبه سكرتيراً ناسخاً، فهل كان هذا هو تصدّره لو أجبه؟ شعرت بقلبي يفيض حسرة ، فقررت بلا تردد أن أدخل معه في نقاش مرير ، وكان سخطي قد جعلني أسرع الخطى على غير وعي مني ، فكان كازيمير يجد مشقة في متابعتي ، ولاحظت أنه غارق في عرقه ، فمددت له يدي فاستبقاها في يده ، وراح يعرج إلى جانبي ، بينما أبطأتُ أنا من مشيتي .

- هل الرسالة رسالتك؟

فأجاب من فوره :

- أوه ! كلا.

ولكن عندما تماديت في أسئلتني أدركت قلة معلوماته ، ولا شك في أنه لاحظ دهشتي ، فأضاف قوله :

-اقرأ كثيراً.

قال كمسكين يقول: أنا أملك ثياباً أخرى!

- وماذا نحب أن نقرأ ؟

- كتب الرحلات.

في نظرة تحدّ مسكونة بالثقة بدلا من الحيرة .. قال:

- سافر القس إلى الصين ، هل تعرف ذلك ؟

كانت لكنة تكشف عن إعجاب بأستاذه ، واحترام زائد له.

بلغنا المكان الذي أسمته مدام فلوش « المحجز » ، فوجدته مكانا مهجورا منذ زمن طويل ، أشبه بمغارة تحف بها أحراش تحجبك عن الأنظار . فجلسنا فوق حجر فاتر بتأثير حرارة الشمس التي كانت قد شرعت في المغيب ، وكانت الحديقة تنتهي عند هذا المكان دون أن يحدها سياج أو جدار ، وكنا قد مررنا يسارا بطريق منحدر بانحراف يقطع حاجزًا صغيرًا . وكان انحدار الطريق من الشدة بحيث كان حماية طبيعية للحديقة .

سألت كازيمير :

- وأنت يا كازيمير ، هل سبق وأن قمت برحلات ؟

لم يجب ، وطأ طأ رأسه .. كان الوادي غارقا في الظلام تحت أقدامنا ، وكانت الشمس تحف بالتل الذي يحول دون استرسال الطبيعة أمامنا . كانت توجد أشجار كستناء وبلوط تعلو كتلاً جيريًا صغيرًا انتشرت فيه أوكار الأرناب . كان المنظر رومانسيًا ويتميز عن سائر المنطقة المتسمة بالرتابة .

وفجأة صاح كازيمير :

- انظر إلى الأرانب .

وبعد برهة ، أضاف وهو يشير بأصبعه إلى الأشجار :

- ذات يوم ، سعدت بصحبة سيدي القس . وعند عودتنا ، مررنا ببركة تغطيها النباتات المائية ، فوعدت كازيمير بأن أعد له سنارة لكي أدربه على صيد الضفادع . هذه السهرة الأولى لم تختلف عما تلاها ، وإن لم تمتد بعد التاسعة ، ولا حتى عما سبقها .. لأن أصحاب الدار كانوا يراعون مبدأ عدم الإسراف . في أثناء العشاء نشعل النار في الموقد ، وكان يوجد مصباح كبير على طرف منضدة من الخشب المطعم ، يضيء القطاع الذي يتنقل فيه كل من البارون والقس ، كذلك كان هذا المصباح يضيء المائدة الصغيرة المستديرة التي كانت النساء يلعبن عليها لعبة الورق . وبدأت مدام دي سان - أوربول الحديث فقالت :

- السيد لاكاز الذي اعتاد هو باريس ومسراته ، سيجد ولا شك في هونا شيئاً من الخمول .

كان السيد فلوش يجلس في مقعد وثير في أحد أركان المدفأة ، بين النوم واليقظة . أما كازيمير ، فقد كان يسند مرفقيه إلى المنضدة ، واضعاً رأسه بين يديه ، وقد تدلت شفته السفلى ، وسال منها اللعاب . وعلى هذه الحال ، كان يقرأ في كتاب « جولة حول العالم » . تظاهرت

مراعاة للياقة والذوق بالاهتمام البالغ بلعبة النساء . وكان من الممكن أن يتم اللعب بالاستغناء عن أحد اللاعبين الأربعة كما يحدث في لعبة « الوست » إلا إنه من الأفضل أن تؤدي بأربعة لاعبين . ولذلك فما إن اقترحت الاشتراك في اللعب ، حتى سارعت مدام دي سان - أوربول بقبولي زميلًا لها . وفي الأمسيات الأولى تمكن الفريق المنافس من هزيمتنا ، فسعدت مدام فلوش ، وكانت بعد كل فوز تربت على ذراعي بيدها النحيلة المكسوة بقفاز بلا أصابع . وكان يسود اللعب الكثير من حركات التهور والجراة وأعمال المكر والدهاء والتفنن والمهارة ، وكانت الأنسة أوليمب مريثة في لعبها ومتروية .

وفي بداية كل دور كنا نحدد النقاط اللازمة لتحقيق الفوز ، وبعد ذلك كان كل لاعب يقامر ويزايد حسبما يكون تحت يده من أوراق ، مما يتيح فرصة للتغريض والإيهام . وكانت مدام دي سان - أوربول تغامر في تهور وجراة وقد لمعت عيناها ، واحمرت وجنتاها وارتعد ذقنها ، وعندما كانت تجذب بين يديها أوراقًا رابحة ، كانت تركلني بقدميها من تحت المنضدة ، وكانت الأنسة أوليمب تحاول أن تصمد أمامها ، ولكنها لا تلبث أن ترتبك عندما تسمع صوت العجوز الحاد يصيح فجأة:

- فيردور ، أنت تكذبن .

عند انتهاء الدور الأول أخرجت مدام فلوش ساعتها ، وكان الوقت قد حان ، ثم نادت قائلة:

- كازيمير ، هيا ، حان الوقت.

فيحاول الصبي في مشقة أن يقاوم نعاسه وينهض ، ويقدم للرجال يدا مسترخية للتحية والسلام ، ويحني جبينه للنساء ليتلقى قبلاتهن ، ثم يخرج وهو يتعثر في مشبته .

وعندما كانت مدام دي سان - أوريول تدعونا لجولة الثأر ، يكون أول دور على وشك الانتهاء. كان السيد فلوش يأخذ أحيانا مكان صهره ، ولم يكن السيد فلوش ولا القس يعلنان عن العاهبها ، ولا سمع لهما سوى صوت النرد داخل القرطاس ، أو فوق المنضدة. أما السيد دي سان - أوريول فكان يناجي نفسه في مقعده الوثير، أو يغمغم بصوت منخفض ، الشظايا ، فتهب الأنسة فيردور وتؤدي فوق البساط ما كانت مدام دي سان - أوريول تسميه برقصة الشظايا.

كان السيد دي سان أوريول يترك البارون والقس في تنافسهما ولا يغادر مقعده الوثير، وكنت وأنا في مكاني أستطيع أن أراه ، لا يكون نائما كما يبدو ، وإنما هازأ رأسه في الظلام . وفي أول أمسينته حدث أن توهج اللهب فأضاء وجهه ، فتبينت أنه كان يبكي .

وعندما كان اللعب ينتهي في التاسعة والربع ، كانت مدام فلوش تطفى المصباح ، وتقوم الآنسة فيردور بإشعال شمعتين تثبتها على طرف طاولة اللعب .

وكانت مدام دي سان - ، أوريول وهي تضرب زوجها على كتفه بالمروحة توصي القس قائلة:

- أيها القس ، لا تجعله يسرف في السهر .

اعتقدت منذ الليلة الأولى أنه من دواعي اللياقة تلبية دعوة النساء تاركًا اللاعبين لتنافسهما ، والسيد فلوش مع امرأته .. وكان آخر من يصعد منا . وفي الدهليز حمل كل منا شمعدانًا . وقامت النساء بتحيتي كما يفعلن في الصباح . كنت أدخل حجرتي فلا ألبث أن أسمع الآخرين وهم يصعدون . ثم سرعان ما يطبق الصمت ، إلا أن النور يظل يتسرب من تحت الأبواب . فإذا اضطرت للخروج إلى الممر ، فقد أصادف مدام فلوش ، أو الآنسة فيردور يفرغان من عمل ما . وبعد ذلك يظن المرء أن كل الأضواء أطفأت ، ولكنه كان يرى طاقة من الزجاج تستمد نورها من ضوء الدهليز ، ولا تفضي إليه ، وتدخل مدام دي سان - أوريول في صدرها خيال ظل وهي ترتق بعض الثياب .

يومي الثاني في الكارفورش كان شبيها باليوم الأول ، بشكل واضح ، ساعة بساعة ، إلا أن الفضول الذي كان يدفعني إلى الاطلاع على حياة أهل البيت كان قد زال تماما . وكان ثمة رذاذ رقيق يملأ الجو منذ الصباح . فلما استحالت النزهة ، وكان حديث النساء يخلو من الدفء والمعنى ، ومع الوقت ، شغلت ساعات النهار كلها في العمل . لم أكد أتبادل مع القس بعض العبارات ، وكان ذلك بعد الغذاء ، حيث دعاني إلى تدخين سيجارة على بعد خطوات من حجرة الجلوس في مكان يشبه مستودعا كان يطلق عليه أهل الدار تعظيما التويشة ، وكانوا يضعون فيه مقاعد الحديقة وكراسيها طوال فصل الشتاء الرديء .

وعندما طرقت موضوع تعليم الطفل في شيء من الحدة قال:

- ولكني يا سيدي ، أستهدف شيئا آخر من تفتيح مدارك كازيمير ، بكل ما أملك من علوم متواضعة ، وأنا لم أعدل عن هدي في هذا إلا مرغما . هل كنت تؤيدني، وهو يعرج هكذا ، لو فكرت في أن أعلمه الرقص على الحبل ؟ سرعان ما وجدت أن من واجبي أن أحدى من آمالي . وإذا كان يشغل نفسه معي بآبن رشد ، فلأنني أقوم ببحث في فلسفة أرسطو ، ففضلت أن أشركه معي في هذا العمل بدلا من أن أتهجى معه

في كتاب من كتب النحو . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فالمهم هو إشغال كازيمير ثلاث ساعات أو أربع يومياً ، هل كان بوسعي أن أتجنب الشعور بالخطأ لو أنه أضاع من وقتي هذه الساعات ، دون أن يستفيد هو؟ كفى نقاشاً في هذا الموضوع ، أعتقد .. بعد ذلك ألقى سيجارته ، وكان قد تركها حتى انطفأت ، ونهض ليعود إلى حجرة الجلوس .

منعتني رداءة الجو من الخروج مع كازيمير ، فاضطررنا إلى أن نرجع للبوم التالي ما كنا قد نوينا عليه في الصيد . ولكني أمام خيبة آمال الصبي ، حاولت أن أقدم وسيلة أقوى للتسلية . كنت قد عثرت على رقعة للشطرنج ، وبدأت السهرة مثل سابقتها تماماً ، غير أنني لم أعد أنصت أو أنظر إلى شيء ، فكان يحشم على صدري شيء من الضيق لا أدري كنهه .

ما إن انتهينا من تناول العشاء ، حتى هبت ريح عاصفة ، فأوقفت الآنسة فيردور اللعب مرتين ، وصعدت إلى الحجرات العليا لترى ما إذا كان المطر سيتسرب إليها . واضطررنا إلى لعب دور الثأر من دونها ، إلا أن اللعب كان يخلو من الإثارة .

كان السيد فلوش جالساً في مقعد وثير منخفض بالقرب من المدفأة ، يهدده صوت المطر الهاطل ، فينام نوماً عميقاً . وكان البارون جالساً أمامه في مقعده يشكو ويتألم من الروماتيزم .

ولما لم يجد القس منافساً يلاعبه ، جعل يردد دعوته للبارون :

- سيضيع عليك دور من النرد .

ولما لم يصل معه إلى نتيجة ، انصرف مصطحبًا كازيمير ليرقده في فراشه ، وعندما وجدت نفسي وحيدًا في ذلك المساء داخل غرفتي ، تملكني قلق لا يرحم استولى على روحي وجسدي ، وإذا بضيفي يتملكه الخوف . كان ثمة جدار من الأنهار يفصل بيني وبين بقية العالم ، فإذا بي فريسة كابوس مزعج ، بعيدًا عن كل عاطفة ، بعيدًا عن الحياة ، بين مخلوقات غريبة لا تكاد تكون من البشر . جمدت قلوبها وبهتت وجوهها ، وكفت قلوبها عن الخفقان منذ بعيد . فتحت حقيبة السفر ، وأخرجت دليل القطارات ، وأخذت أبحث عن قطار ، نهارًا أو ليلاً ، ليحملني بعيدًا .. إني أختنق هنا .

عندما استيقظت في اليوم التالي ، لم أكن أقل تصميمًا ، إلا إني وجدتني منافيًا لقواعد الذوق واللياقة ، أن أترك المضيفين دون أن أقدم عذرا لسبب قطع إقامتي .. أو لأتهور وأذكر لهم إنني سأناخر أسبوعًا على الأقل عن الكارفورش !

لقد وجدتها ! سأقول لهم إن أنباء سيئة تستدعيني إلى باريس . ولحسن الحظ ، كنت قد تركت عنواني في باريس قبل المجيء ، فكان من الذوق أن يرسل بريدي كله إلى الكارفورش . قلت في نفسي إنها حقًا معجزة إذا لم يصل حتى اليوم أي خطاب أستطيع استغلاله في براعة وحرقة . علقت أمني بوصول ساعي البريد .

كان يأتي بعد الظهر بقليل ، عندما نفرغ من غداثنا - كنا لا تغادر المائدة قبل أن تأتي ديلفين حاملة إلى مدام فلوش رزمة خفيفة من

الخطابات والمطبوعات فتتولى توزيعها على الحاضرين . ولسوء الحظ حدث في ذلك اليوم ، أن كان القس سانتال مدعوًا لتناول الغذاء عند عمدة بلدة ليفيك ، وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ، جاء ليستأذن من مدام فلوش ومني ، ولم أدرك أنه كان يسلمني الجواد والعربة .

وعلى الغذاء ، قمت بأداء الدور الذي أعددت له ، قدممت وأنا أفض أحد المظاريف التي قدمتها لي مدام فلوش :

- يا الله ! ياها من مضايقة !

ولما لم يلتفت أحد من أهل الدار إلى صيحتي خشية إخراجي ، عاودت رافعًا صوتي ومتصنعا الدهشة والضيق ، بينا عيناى تجولان بين سطور رسالة لا أهمية لها :

- واأسفاه !

وأخيرًا تجرأت مدام فلوش وسألتني بلهجة يشوبها الحياء :

- ما هذا النبأ السيئ يا سيدي العزيز !

أجبت من فوري :

- أوه ! لا شيء . ولكني للأسف أن يتحتم عليّ أن أعود إلى باريس فورًا ، وهذا ما يكدرني .

عمت الدهشة كل الجالسين إلى المائدة ، فجاوزت ما كنت أتوقع حتى احمر وجهي خجلًا ، وتجلت هذه الدهشة بداية في وجوم شامل قطعته السيد فلوش في صوت تشوبه الرجفة :

- صحيح هذا يا صديقي العزيز؟ ولكن عملك ! ولكن.. ولم
يستطع أن يكمل ، ولم أجد ما أجيب به ولا ما أقوله ، بل انتابني شعور
طفيف بالتأثر . وكانت عيناى مسلطتين على قمرة رأس كازيمير ،
فرأيتة وقد دس أنفه في الطبق ، وجعل يقطع تفاحة ، أما الآنسة
فيردور فكان وجهها قد احمر قانيا من الغيظ .

وإذا بمدام فلوش تقول بصوت منخفض:
- أعتقد أن ما ينافي الذوق يا سيدي أن نطلب منك البقاء .

فقالت له مدام دي سان - أوريول بحدة:
- لما يقدمه الكارفورش من ألوان اللهو والمتعة!
فحاولت الاعتراض قائلاً:

- أوه يا سيدي ، ثقي تماماً أن ما من شيء ...
غير أن البارونة ، دون أن تنصت لقولي ، صرخت بأعلى صوتها في
أذن زوجها.. كان يجلس إلى جوارها:
- السيد لاكاز يريد أن يرحل عنا .

فقال الأصم وهو يبتسم لي:
- عظيم ! عظيم ! ما أكثر سروري لذلك .
عندئذ توجهت مدام فلوش بالحديث إلى الآنسة فيردور:
- كيف سنتصرف .. الجواد مع القس؟

تراجعت قليلاً وقالت :

- المهم أن أكون في باريس صباح غد .. وإذا لزم الأمر ، فإن قطار
الليل يكفي .

فقال مدام فلوش:

- فلتذهب يا جراسيان فورا لترى إذا كان من الممكن أن نستخدم جواد آل بوليني ، وأخبرهم أن عليك أن تنقل شخصا يريد أن يستقل قطار الساعة.. ثم قالت وهي تلتفت نحوي:

- هل يكفي قطار الساعة السابعة؟

- أوه ! سيدتي، أنا آسف إذ أسببُ لكم كل هذه المضايقات.

انتهى الغذاء في سكون ، وما أن فرغنا منه ، حتى صحبني السيد فلوش وخرجنا ، وعندما أصبحنا وحدنا في الممر الذي يؤدي إلى المكتبة ، قال:

- سيدي العزيز ، صديقي العزيز ، لا أستطيع أن أصدق ، ولكنك لا تزال في حاجة إلى معرفة الكثير . هل من الممكن أن يحدث هذا ؟ يا ها من مضايقة ! يا لها من مضايقة فظيعة ! كنت أنتظر أن تنتهي من المرحلة الأولى من البحث ، لأضع تحت يدك أوراقا أخرى أخرجتها مساء أمس ، أعترف لك أني كنت أعتمد على هذه الأوراق لأثير اهتمامك من جديد ، وأستبقيك مدة أطول ، فلا بد من إطلاعك الآن عليها، تعال معي - لا يزال لديك الوقت حتى المساء ؛ لأنني لا أجرؤ على طلب العون مرة أخرى ، أليس كذلك؟

أمام ضيق وضجر الكهل ، أحسست بالخجل من تصرفي ، وكنت قد أضنيت نفسي في العمل طوال نهار أمس وصباح اليوم ، بحيث لم

يتوافر من الوقت إلا ما يتيح أن ألقى نظرة عابرة على الأوراق الأولى التي كان السيد فلوش قد أعطانى إياها . ولكن ما إن صعدنا إلى خلوته ، حتى بادر بفتح أحد الأدراج وأخرج من داخله في حركة غامضة لفافة يغلفها نسيج من قماش يثبتته خيط رفيع، وتحت الخيط دست بطاقة على هيئة قائمة بالأوراق في الداخل ومصادرهما، فقال:

- خذ اللفافة كلها ، وليست كل ما تحتويه بالطبع من أوراق هامة ولكنك تستطيع أن تستخرج من بينها ما يهمك بسرعة.

وبينما كان يفتح بعض الأدراج الأخرى ، ويغلقها ويتظاهر بالانشغال ، نزلت إلى المكتبة حاملاً حزمة من الأوراق التي فضضتها فوق المنضدة الكبيرة .

كانت بعض الأوراق فعلاً تتصل ببحثي ، ولكنها كانت قليلة العدد ضئيلة الشأن ، وكان أغلبها مكتوباً بخط السيد فلوش نفسه ومتصلاً بحياة ماسيون .. ولذلك فلم تكن تعينني في كثير.

أصبح أن فلوش المسكين كان يعتمد على هذه الأوراق ليستبقيني؟

فنظرت إليه ، كان في ذلك الوقت قد غار في مقعده وأمسك دبوساً يفتح به في دقة وصبر ثقوب وعاء صغير لصب السندروسي . وما إن فرغ من هذه العملية ، حتى رفع نظره فالتقى بنظري . وإذا بابتسامة ودية تغير وجهه فنهضت لكي أحادثه ، واتكأت على ذراعي مقعده في مواجهة جسمه الضئيل ، وقلت مخاطبه:

- سيدي فلوش ، لماذا لا تأتي إلى باريس ؟ إنه ليسرنا أن نلتقاك هناك.

- في مثل عمري ، يكون الانتقال عسيرا أو باهظ التكاليف .

- هل تأسف على حياة المدينة؟

فقال وهو يرفع يديه:

- آه ! كنت أتوقع أن يكون أسفي عليها أكبر . إن الوحدة في الريف ، تبدو قاسية لمن يحب الحديث ، ولكن سرعان ما يعتادها .

أنت إذن لم تأت للإقامة في الكارفورش عن ميل أو رغبة؟

قام من مقعدة ونهض واقفا ، ثم وضع يده فوق كمي في ألفة وقال:

- كان لي في المعهد بعض الزملاء الذين أعتز بهم ، ومنهم أستاذك ألبير دينوس ، وأعتقد أنني كنت على وشك أن أشغل مكانا بينهم .

لاح لي أنه يريد أن يفيض في الحديث ، ومع كل وقفة كنت لا أجرؤ على سؤاله مباشرة ، وقلت:

- هل هي مدام فلوش التي كان يستهويها الريف إلى هذا الحد؟

- كلا ، ومع ذلك فقد جئت إلى الريف من أجلك ، أما هي فقد جذبها إليه طارئ عائلي بسيط .

كان قد هبط إلى القاعدة الكبرى ، فلمح اللقافة التي كنت قد أعدت ربطها ، فقال لي بأسى:

- آه ! اطلعت على كل شيء، وربما وجدت بينها شيئاً يفيدك..
وماذا كنت تريد ؟ أنا ألتقط أقل الفتات ..

في بعض الأحيان أقول لنفسي : إني أضيع وقتي في جمع النافه من الأشياء.

ولكن لا بد من وجود رجال مثلي ليوفروا على من كان مثلك القيام بهذه الأعمال البسيطة التي يفيدون منها فائدة عظيمة . وعندما أقرأ رسالتك سأشعر بالسرور عندما أجد تعبي قد حقق لك ولو جزءاً من الفائدة.

وإذا بالجرس يدعوننا لوجبة العصر.

كنت أقول لنفسي : ما السبيل إلى معرفة ذلك «الطارئ العائلي البسيط» الذي كان وحده كافياً لإقناع هذين العجوزين ؟ هل يعرفه القس ؟

فبدلاً من مناصبته العداة ، كان ينبغي أن أستميله .. لا يهم ، فات الأوان .. ولا يمنع ذلك من أن السيد فلوش رجل كريم النفس ، وسأظل أحتفظ له بأعطر ذكرى ..

وصلنا إلى حجرة الطعام .. قالت مدام فلوش :

- كازيمير لا يجرؤ على طلبك للخروج معه في جولة قصيرة في الحديقة، أنا أعرف أنه شديد الرغبة في ذلك ، ولكن الوقت قد لا يسعفه .

كان الصبي يغرق وجهه في إناء من اللبن ، فرفع هامته وهو بادي
الابتهاج، فقلت:

- كنت على وشك أن أقترح عليه أن يصحبنى ، فقد انتهيت من
عملي وسأظل بلا مشاغل حتى يحين وقت الرحيل . ولحسن الحظ كان
المطر قد كف عن المطول .

صحبت الصبي إلى الحديقة .

كان الصبي يمسك بإحدى يدي بين يديه ، وعند أول منعطف رفع
يدي إلى وجهه الملتهب ، وأخذ يضغط عليها طويلاً ، وقال:

- أخبروني أنك ستمكث ثمانية أيام.

- يا صغيري العزيز ، لا أستطيع أن أبقي أطول من ذلك .
- مللت عشرتنا ..!

- كلا ، كان لابد لي من الرحيل .

- إلى أين؟

- إلى باريس ، وسوف أعود.

وما كدت أنطق بهذه العبارة حتى نظر إليّ بقلق ولهفة:

- صحيح؟ هل تعد بذلك؟

كان استفسار الصبي يتضمن كثيراً من الثقة ، فلم تواتني الشجاعة
للتراجع ، وقلت :

- هل تحب أن أكتب لك هذا على ورقة صغيرة تحتفظ بها؟

- أوه ! أجل !

قال وهو يقبل يدي بشدة ويقفز معبّراً عن فرحته في هوس وجنون:

- هل تعرف ما يحق لنا أن نفعله الآن ، بدلاً من الذهاب لصيد الأسماك ؟ .. جدير بنا أن نقوم بقطف بعض الزهور لنقدم منها لعمتك ، ونذهب إليها حاملين باقة ضخمة نفاجئها بها في حجرتها .

كنت قد نويت ألا أغادر الكارفورش قبل أن أزور حجرة إحدى العجوزين ، ولما كانتا نتجولان بلا انقطاع بين أرجاء الدار، كان من الجائز جداً أن تفاجئني إحداها في زيارتي المتطفلة ، فكنت أعتمد على الغلام في إيجاد سبب لحضوري ، فإذا كان دخولي إثر الصبي إلى حجرة جدته أو خالته لا يبدو أمراً طبيعياً ، فإنه بفضل باقة الزهور قد أستطيع في حالة المفاجأة أن أبرر موقعي .

غير أن قطف الزهور في الكارفورش لم يكن عملية بسيطة كما كنت أعتقد ، فقد كان جراسيان يلاحظ الحديقة في تشدد وصرامة ، ولم يكن يكتفي بإرشاد إلى الزهور التي يمكن قطفها ، بل كان يتدخل أيضاً في تحديد الطريقة التي يتم بها قطف الزهور ، فلا بد من مراعاة الدقة والحذر ، ولا بد من الحيلة كل الحيلة ! ذلك ما بيّنه لي كازيمير . اقتادنا جراسيان إلى حد من زهور الداليا اللاتقة ، كان من الممكن أن نقطف منها عددا من الباقات دون إتلاف زهرة .

- من أعلى الغصن يا سيد كازيمير ، كم مرة ينبغي أن أكرر هذا ؟

اقطف دائما من أعلى الغصن .

صحت بعد أن نفذ صبري:

- نحن في نهاية الموسم ، فلا ضرورة لذلك الآن .

فأجاب مهمهما : ضرورة ذلك قائمة في كل وقت ، وما من موسم يجذ العمل السيئ . أنا أمقت المتحذلقين الذين لا يتحدثون إلا بالحكمة والمثل ..

كان السكون الذي يسود في حجرة الخالة أشبه بسكون المعبد .. وكانت مصاريع النوافذ مغلقة ، وكان يوجد بالقرب من الفراش مصلى من خشب الموجنا البطن بالمخمل الأحمر الفاتر ، يعلوه صليب من العاج والأبنوس يغطي نصفه غصن رفيع من البقس متعلق بشريط وردي ، مثبت تحت إحدى إبطي الصليب .. كل شيء كان يوحي بالتعب ، نسيت ما جئت من أجله ، ونسيت الفضول الأجوف الذي جذبني إلى هذا المكان ، فتركت كازيمير يرتب الزهور كما يحلو له فوق منضدة صغيرة ، وأصبحت لا أنظر إلى شيء في الحجرة ، وكنت أحدث نفسي قائلاً : «هنا فوق هذا الفراش ، سرعان ما ستنطفئ شمعة مدام فلوش العجوز ، بعيداً عن أعاصير الحياة ، أيها الشراع الذي يهفو إلى العاصفة .. ما أهدأ هذا المرفأ !

كان كازيمير في هذه الأثناء قد ملّ ترتيب الزهور ، فقد كانت أغصان الداليا الثقيلة قد غلبته على أمره ، وإذا بالباقعة كلها تهوي على الأرض . وأخيراً قال لي:

- هلا ساعدتني؟

وبينما كنت آخذ مكانه ، أسرع إلى الطرف الآخر من الحجرة نحو خزانة فتحها وهو يقول:

- ساعد لك الورقة التي تدوّن فيها العودة إلينا.

فعقبت قائلاً:

- هو ذاك ، هو ذاك ، أسرع ، فقد تغضب خالتك لو رأتك تنقب في خزانتها .

- أوه ! خالتي مشغولة في المطبخ ، ولا تزجرني مطلقاً .

وراح يكتب على إحدى أوراق الخطابات بكل دقة وعناية .

- والآن تعال وقّع .

فاقتربت وقلت ضاحكاً:

- ولكنك يا كازيمير ما كان ينبغي أن توقع باسمك أنت !

ما من شك في أن الصبي، رغبة منه في إضفاء الأهمية على هذا التعهد..

اعتقد أن من الأفضل أن يوقع باسمه أسفل الورقة التي قرأت فيها:

«يتعهد السيد لا كاز بالعودة إلى الكارفورش في العام القادم ..

كازيمير دي سان - أوريول ».

مكث برهة مرتبكاً من ملاحظتي وضحكي . كان الصبي قد فعل ذلك مدفوعاً بكل قلبه ، فهل كنت أهزأ به إذا ؟! كان على وشك البكاء !
- نهض ، وعندما وقعتُ على الورقة ، قفز فرحاً ، وانهال على يدي لشما وتقبيلاً . هممت بالانصراف ، فجذبني من كمي وهو مائل على الخزانة :
- سأريك شيئاً .

قال وهو يصلح زينكاف (قفل) الخزانة ويسحب درجاً كان يعرف طريقة فتحه ..

وجعل ينقب بين شرائط وإيصالات ، ثم قدم لي صورة صغيرة داخل إطار ، وقال :
- انظر . اقتربت من النافذة ..

- ما هذه الحكاية التي وقع فيها البطل في غرام الأميرة بمجرد أن رأى صورتها ، لاشك أن هذه هي صورتها ؟

لا أفهم في التصوير ، ولا أهتم كثير بهذا الفن ، إلا أنه من المؤكد أن خبيراً في التصوير يستطيع أن يتبين الصنعة في هذه الصورة ، فالشخصية لا تكاد تظهر من فرط ما في الصورة من جمال وروعة - على أن هذا الجمال الطاهر كان من النوع الذي لا يمكن للناظر أن ينساه ولا أهمية عندي ، لمحاسن التصوير أو عيوبه . فالمرأة الشابة التي كانت أمامي لم أكن أرى منها سوى جانب من وجهها .. كانت وجنتها تختفي تقريباً خلف خصلة ثقيلة سوداء ، وبدت عينها ناعسة حاملة في حزن ، ورأيت ثغرها منفرجاً كأنها يطلق الزفرات ، وجيدها

دقيقاً أشبه بغصن الورد - كانت هذه المرأة ذات حسن فتان وجمال
ملائكي ، فلم أعد وأنا أتأمل أعني شيئاً عن المكان أو الزمان .. وكان
كازيمير قد ابتعد عني ليكمل ترتيب الزهور فعاد ومال نحوي قائلاً :

- هذه أمي إنها جميلة .. أليست كذلك؟!

شعرت أمام الصبي بالحرج ؛ لأنني وجدت أمه على هذا القدر من
الجمال !

- أين هي الآن ؟

- لست أدري !

- لماذا لا تعيش هنا ؟

- تمّل الإقامة هنا ؟

- وأبوك ؟!

اضطرب بعض الشيء ، وقال وهو يطأطئ الرأس كأنها يشعر
بالخجل :

- أبي مات .

كانت أسألتي تضايقه ، ولكنني كنت قد صممت على التهادي فيها!

- هل تحييء أمك لزيارتك أحياناً ؟

فأجاب مؤكداً ، وهو يرفع هامته فجأة :

- أوه ! أجل كثيراً ما تحييء .. ثم أضاف وقد خفت صوته بعض

الشيء :



- تجيء وتتحدث مع خالتي .
- ولكنها تتحدث معك أيضا !!
- أوه! معي أنا .. أنا لا أعرف كيف أتحدث معها ، ثم إنها تجيء وأنا نائم ..
- نائم !
- نعم تجيء ليلاً ..
- ثم استسلم لثقته واطمئنانه .. كان قد أمسك بيدي عندما وضعت الصورة .. وأضاف في حنان ، كأنها يعهد إليّ بسر :
- آخر مرة جاءت وقبلتني في فراشي .
- أو لا تقبلك عادة ؟
- بل تقبلني كثيراً ..
- إذاً لماذا تقول « آخر مرة » ؟
- لأنها كانت تبكي ..
- هل جاءت مع خالتك ؟
- كلا ، بل دخلت بمفردها في ظلمة الليل ، وكانت تعتقد أنني نائم !
- هل أيقظتك ؟
- أوه ! لم أكن نائماً ، بل كنت في انتظارها ..
- كنت تعلم إذاً بوجودها ..

طأطأ رأسه مرة أخرى دون أن يجيب فسألته بإلحاح :

- كيف عرفت بوجودها ؟ وفي ظلمة الليل كيف عرفت أنها تبكي ؟

- أوه ! شعرت بذلك ..

- أולם تطلب منها البقاء معك ؟

- أوه ! بلى وكانت مائلة على الفراش فكنت أمسك بها من شعرها..

- وماذا كانت تقول ؟

- كانت تضحك ، وكانت تقول إني سأنكش شعرها ، وإنها لا بد

وأن تنصرف .

- ألا تحبك إذا ؟

- أوه ! بلى تحبني كثيرا ..

صاح فجأة مبتعدا عني ، وقد التهاب وجهه في نبرة تنم عن الوله والحب ، حتى خجلت من سؤاله ؛ وإذا بصوت مدام فلوش يدوي عند سطح السلم مناديا :

- كازيمير ، كازيمير ! اذهب إلى السيد لاكاز وأخبره بأن الوقت

قد حان ليستعد للسفر ؛ فالعربة ستكون هنا بعد نصف ساعة .
اندفعت ونزلت السلم مسرعا ولحقت بالعجوز في الدهليز ، سألتها :

- مدام فلوش ! هل يمكن أن أكلف أحدا بحمل برقية ؟ لقد

وجدت طريقة تتيح لي على ما أعتقد أن أبقى بينكم بضعة أيام آخر ..
فتناولت كلتا يدي بين يدها :

- أوه ! حقًا يا سيدي العزيز ؟

ولما كانت في غمار تأثرها وانفعالها لا تجد ما تقوله جعلت تكرر قولها « حقاً ! ثم أسرع نحو نافذة فلوش وصاحت قائلة :

- صديقي ، صديقي (هكذا كانت تناديه) السيد لاكاز تفضل بالبقاء ، كان صوتها الضعيف يرن كما جرس متصدع ، ولكنه بلغ هدفه ، فقد رأيت النافذة تفتح والسيد فلوش يطل منها للحظة ، ثم ما إن علم بالخبر حتى قال :

- أنا نازل ! أنا نازل !

لحقت كازيمير ، وظللت بضع لحظات أتقبل التهاني من كل فرد على حدة ، وكان المشاهد يتيقن أني أحد أفراد العائلة .. كتبتُ برقية وهمية ، وأرسلتها إلى عنوان وهمي ..

قالت مدام فلوش :

- أخشى أن أكون قد أثقلت عليك في الإلحاح أثناء الغذاء ، وأتعشم ألا يعتبر بقاؤك هنا مضرًا بأعمالك في باريس .
- أتعشم ذلك يا سيدتي العزيزة ، لقد رجوت أحد الأصدقاء أن يعتني بمصالحني .

كانت مدام دي سان - أوربول قد أقبلت ، وكانت تهوي بمروحتها وهي تدور في الحجرة صائحة بصوتها الخاد :

- ياله من لطيف ! آه ! لطف فائق ... ياله من لطيف !

ثم غابت فأطبق السكون .. قبل العشاء عاد القس من بون - ليفيك ولما لم يكن يدري شيئاً عن موضوع سفري لم يفاجأ ببقائي ،

وقال ببشاشة:

- سيدي لاكاز أحضرت من بون - ليفيك بعض الصحف وأنا لا أهتم كثيرا بما تراه الصحف ، ولكنني تصورت أنك قد تكون محروما هنا من الأخبار ، وأن هذه الصحف ، قد تهملك .. كان يبحث في رداؤه :
- آه ، حملها جراسيان مع الحقيبة إلى حجرتي ، انتظر لحظة فسأحضرها لك ..

- لا تفعل ذلك يا سيدي القس سأصعد لإحضارها .
صحبته حتى حجرته فدعاني للدخول ، وبينما كان ينظف رداءه بفرشاة ويتهيا للعشاء ، سألته بعد تبادل بعض المجاملة :
- هل كنت تعرف أسرة سان - أوربول قبل أن تجيء إلى الكارفورش ؟
- لا .

- ولا السيد فلوش ؟

- انتقلت من التبشير إلى التعليم فجأة ، وكان رئيسي على صلة بالسيد فلوش ، فعينني للقيام بالمهام التي أباشرها الآن ، فقبل أن أجيء إلى هنا لم أكن أعرف تلميذي ولا والديه .

- أي أنك لا تعرف الطارئ الذي دفع السيد فلوش فجأة إلى مغادرة باريس منذ خمسة عشر عاما تقريبا ، عندما كان على وشك أن يعين بالمعهد .

همهم قائلا :

- هذه تصارييف القدر .

- كيف ؟ معنى هذا أن السيد فلوش وزوجته يعيشان هنا على نفقة

آل سان - أوريول ؟

قال وقد ضاق صدره :

- كلا ، كلا ! إن آل سان - أوريول هم الذين فقدوا كل ثروتهم ،

أو معظمها ، ومع ذلك فهم يملكون قصر الكارفورش . أما آل فلوش

وهم في سعة من العيش فهم يعيشون معهم ليساعدوهم ، فهم

يتكفلون بنفقات البيت ، وبذلك يتيحون لآل سان - أوريول

الاحتفاظ بالكارفورش . ومن المفروض أن يؤول هذا القصر فيما بعد

لكازيمير ، وأعتقد أن هذا هو كل ما يأمله الصبي .

- وزوجة الابن ! أم كازيمير ليست زوجة ابن سان - أوريول بل

هي ابنته .

- ولكن اسم الصبي ؟ (فتظاهر بعدم الفهم) ألا يدعى كازيمير

دي سان - أوريول ؟

فأجاب ساخرا :

- أه ! كل ما هنالك أن الآنسة دي سان - أوريول تزوجت من

ابن عم لها يحمل اللقب نفسه .

- عظيم !

قلتها وقد أدركت هدفي إلى حد ما ، ولو أفي ترددت في إغلاق باب المناقشة .. كان القس قد انتهى من تنظيف رداءه ، وكان يضع قدمه على حافة النافذة .. نظف حذاءه بمنديل بضربات قوية ليزيل ما علق به من أتربة .

سألته قائلاً :

- وهل تعرفها ؟ .. الآنسة دي سان - أوربول ؟

رأيتها مرتين أو ثلاث مرات إلا إنها لا تجيء إلى القصر إلا مرور الكرام !

- وأين تعيش ؟

- اعتدل واقفا .. ألقى بالمنديل المترب في ركن من أركان الحجرة ، وقال :

- هو استجواب إذا !

ثم أضاف وهو يتوجه نحو الخوض :

- لن يلبث جرس العشاء أن يدق ، وأن أكون مستعدا .

كان معنى هذا أن أنصرف عنه ، وكانت شفتاه المضمومتان تحبسان الكثير من الكلام ، ولكنها لن يسمحا بأن يفلت منها شيء في هذه اللحظة .

مضت أربعة أيام وأنا لم أزل في الكارفورش ، وقد خفت حدة قلقي عما كانت عليه في اليوم الثالث ، إلا إنني كنت

أكثر مللاً ، فلم أتوصل إلى جديد لا في الأحداث اليومية ، ولا في أحاديث أهل الدار ، فإذا بي أشعر أن فضولي إلى زوال من قلة الزاد . رأيت أنه يجب أن أعرض عن فكرة اكتشاف المزيد ، وتأهبت للسفر من جديد ؛ فقد كان كل ما حولي يمسك عن تعريفني بما يعرف ؛ فالأب يتظاهر بالبركم منذ أن ظهر له مدى اهتمامي بما يعلم ، وأما كازيمير فكما كانت تزداد ثقته بي كنت ازداد أمامه حرجاً ، فلم أعد أستطيع سؤاله ، ثم أني أصبحت أعلم كل ما يمكن أن يخبرني به ، وهو ليس أكثر مما أخبرني به يوم أن أطلعتني على الصورة .

ومع كل فإن الصبي كان قد أخبرني باسم أمه ببراءة وطهر ، وربما كان من الجنون أن أبدي تأثيري على هذا النحو بالصورة الجذابة التي كان يرجع تاريخها إلى أكثر من خمسة عشر عاماً ، بل إنه حتى لو حدث أثناء إقامتي في الكارفورش أن ظهرت إيزابيل دي سان - أوريول كما اعتادت أن تظهر لما تمكنت ولا جرؤت على اعتراض سبيلها ، ومهما يكن الأمر فقد كان تفكيرتي الذي انشغل بها فجأة قد كف عن

الشعور بالملل والرتابة ، فإذا بهذه الأيام الرهيبة تنقضي بسرعة وأفاجأ بانتهاء الأسبوع وليس هناك ما يرر بقائي عند آل فلوش ، خاصة وأن عملي لم يعد يرر تأخير الرحيل ، ولكنني في هذا الصباح كنت أتجول في الحديقة ، وكان الخريف قد زاد من سعتها ورنين أصداؤها ، فإذا بي أجدني أهتف بصوت منخفض لا يلبث أن يرتفع : إيزابيل ! وإذا بهذا الاسم الذي صدمني في البداية يكتسي بالركة والعذوبة ويسري فيه سحر خفي .. ورأيتني أردد قائلًا : إيزابيل دي سان - أوريول ، إيزابيل ! .. تخيلت ثوبها الأبيض عند منعطف الممر يمر ويختفي عن عيني . وبين أوراق الشجر التي كانت تتغير وتتلون كان كل شعاع يذكرني بنظراتها وابتسامتها الحزينة . ولما كنت لا أزال أجهل الغرام وأفعاله تصورت نفسي عاشقا ، وطاب لي أن أكون كذلك ، فهيمتُ في سماوات الحب طائعا وراضيا .

كم كانت الحديقة جميلة ! خاصة وهى تنهيا في جلال الحزن الخريف المنصرم . كنت متشيا وأنا أستنشق أريج الطحلب والأوراق الذاوية ، وكانت أشجار الكستناء الفرعاء الصهباء تجردت من أوراقها تقريبا تميل بأغصانها على الأرض حتى تمسها . كانت بعض أغصان العوسج الأرجوانية تتلألأ في المطر المنهمر والكلأ المجاور لها أخضر يانعا ، وكانت توجد بعض الأزهار الكولشيك متناثرة فوق عشب الحديقة ، وتحت ذلك في الوادي الصغير يوجد مرعى وردي اللون يلحمه المشاهد من المحجر ، كنت أجلس فيه عندما يكف المطر عن

الانهار فوق الحجر نفسه ، الذي كنت جلست عليه مع كازيمير في اليوم الأول ، ومن يدري لعل الأنسة دي سان -أوريول تكون قد جلست عليه من قبل فتخيلت أني أجلس إلى جوارها .

كان كازيمير يرافقني كثيرا ولكنني أفضّل أن أسير وحدي ، كان المطر يباغتني كل يوم وأنا في الحديقة ، فكنت أعود مبلا إلى المطبخ لأجفف ملاسي بالقرب من الموقد . لم تكن الطاهية تحبني وجراسيان كذلك ، ولم أتمكن بتلطفني ورقتي معهما أن أنتزعَ منهما ثلاث كلمات . حتى الكلب لم أتمكن من أن أجعل منه صديقا رغم مداعبتي له وتغلقني إياه . كان « ترنو » يقضي معظم النهار راقدًا في الموقد الواسع ، وكنت لا أكاد أقترّب منه حتى يهب مزجرا . أما كازيمير الذي كنت أراه في الغالب جالسا على حافة المدفأة يقشر الخضراوات أو منهمكا في القراءة فكان يضرب الكلب ضربا خفيفا زاجرا إياه ؛ لأنه يسيء استقبالني . كنت أتناول الكتاب من بين يدي الصبي ، وأواصل القراءة بصوت مرتفع فيستند على ركبتي وأشعر به وقد انصرف إليّ بسمعه وقلبه .

لكن المطر المنهمر في ذلك الصباح هطل شديدا عنيفا ، بحيث لم أتمكن من التفكير في العودة إلى القصر ، فأسرعت فلجأت بسرعة إلى اقرب ملاذ وهو المبنى المهجور في نهاية الحديقة قرب الباب الحديدي وكان منهما فيما عدا قاعة شاسعة لا تزال أنيقة كأنها قاعة استقبال أو مكان للنزهة ، إلا أن أخشاب جدرانها المنحدرة كانت تتشقق وتتصدع لأقل صدمة .

عندما دخلت دافعا بابها الذي لم يحكم إغلاقه جاءت بعض الخفافيش خارجة مندفعة من النافذة التي خلت من زجاجها ، كنت أعتقد أن المطر لن يطول ولكني وجدت وأنا آخذ نفسي أن السماء قد اكفهرت وأريدت تماما . وإذا بي مطوق في حصار طويل الأجل . كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف ، وكان أهل الدار لا يتناولون الغذاء إلا في الثانية عشرة . وجدت أني سأنتظر حتى يدق الجرس الأول الذي ما من شك في أن صوته يصل إلى هذا المكان ، كان معي ما يلزم للكتابة ولما كان بريدي متأخرا حاولت أن أثبت لنفسي أن شغل الفكر ساعة زمن لا يقل يسرا عن شغله يوما كاملا . إلا أن خيالي كان يرديني إلى آه ! لو كنت أعلم أنها ستظهر ذات يوم في هذا المكان لحرقته هذه الجدران بزفرات قلبي الوهان . وسرعان ما تملكني ضيق ممن تثقله العبرات ومكثت منهارة في ركن من الحجرة فلم يكن بها مقعد للجلوس ، وإذا بي أنفجر في البكاء كطفل ضل الطريق .

إن لفظ الضيق كأضعف بالتأكيد من أن يعبر عن الأشجان المضنية التي كنت أقع فريسة لها دائما .. هذه الأشجان تستولي علينا فجأة ونحن في قمة سعادتنا ، فقبل لحظة يضحك لك كل شيء وتضحك أنت لكل شيء . وفجأة إذا بغمامة سوداء داكنة تتصاعد من أعماق النفس ، وتقف حائلا بين المتعة والحياة ، وإذا بها تكون ستارا أغبر يفصلنا عن بقية العالم .. وإذا بحرارة هذا العالم وحبه وألمه وانسجامه

لا تأتينا إلا في صورة انعكاس مجرد ، فنرى ولا نتأثر وربما أودى بنا ما نبذله من جهد يائس لاختراق هذا الستار الفاصل إلى ارتكاب أية جريمة ، وقد يصل الأمر بنا إلى القتل أو الانتحار ، وربما إلى الجنون .

هذا ما كان يدور بخلدني وأنا أرهف السمع للمطر المنهمر ، كنت أحتفظ في يدي بمديّة ففتحتها لأبري القلم ، ولكن الورقة التي فتحت عليها مفكرتي ظلت بيضاء ، وإذا بي أحضر بسن المديّة على سطح الجدار المجاور محاولا نقش اسمها .. لم أفعل ذلك عن اقتناع ، ولكن لأنّي كنت أعلم أن العشاق الموهين يفعلون ذلك ، وعلى أثر كل محاولة كان الخشب البالي يتهاوى ويسقط ، وكان كل حرف أنقشه يترك وراءه ثقباً . وبلا قصد ولمجرد شغل الوقت شرعت في تجريح الخشب كيفما اتفق مدفوعاً بغريزة الهدم البلهاء . كان الغطاء الخشبي الذي كنت أحطمة يقع تحت النافذة مباشرة ، وكان إطاره منفصلاً في أعلاه بحيث كان من السهل أن يسحب الغطاء كله من أسفل إلى أعلى بين جوانبه . وهذا ما لاحظته عندما فوجئت بمدينتي ترفع هذا الغطاء الخشبي في غمار النقش والتجريح .

لم تمض لحظات حتى كنت قد أجهزت على تفتيت الغطاء الخشبي وإذا بمظروف يسقط على الأرض مع فتات الخشب وكان متسخاً عطناً اكتسب لون الجدار ، بحيث لم أدهش بداية .. كلا لم أتعجب من رؤيته فلم أجد غرابة في وجوده هنا . ولذلك لم أتأثر . ولم أحاول فضه فوراً ، كان دميماً مغبراً قدراً يظنه المشاهد جزءاً من أنقاض . فإذا كنت

قد تناولته فإنما كان ذلك لشغل الفراغ . وإذا كنت فضضته فإنما كان ذلك بطريقة آلية .. أخرجت منه ورقتين مكتوبتين بخط كبير باهت اللون وغير مرتب ، يكاد يكون ممسوحا في بعض الأجزاء . ماذا يفعل هنا هذا الخطاب ! نظرت إلى التوقيع فذهلت كان اسم إيزابيل مكتوبا في نهاية الورقتين .

كانت تشغل بالي حتى اللحظة .. فتوهمت لبرهة أنها تكتب الرسالة لي أنا : « حبيبي هذه آخر رسالة مني لك .. أنا أكتب هذه الكلمات على عجل ؛ لأنني أعرف أنني لن أتمكن هذا المساء من قول شيء لك فشفناي وهما إلى جوارك لن تعرفا غير القبلات فاسمعني بسرعة وأنا لا أزال قادرة على الكلام ؛ أنصت إلي .. لقاؤنا في الحادية عشرة متقدم جدا ، فالأفضل أن يكون في الثانية عشرة . أنت تعلم أنني أذوب لهفة إلى لقائك وأن الانتظار يضرني ، ولكنني لكي أسعى للقائك لا بد أن ينام كل مَنْ في الدار أجل ، الثانية عشرة وليس قبل ذلك . تعال للقائي عند باب المطبخ .. سر بمحاذاة جدران بستان الخضر اوات الذي يقع في منطقة مظلمة فهناك أيضا أشجار العوسج . انتظري هناك وليس أمام الباب الحديدي ؛ لا أقول هذا لأنني أخشى أن أجتاز الحديقة وحدي ، ولكن لأن الحقيبة التي أضع فيها بعض ملابسني ستكون ثقيلة للغاية بحيث لن أقوى على حملها لمدة طويلة .. أرى أنه من الأفضل أن تظل العربة في طرف الشارع الضيق ، حتى نستمكن من رؤيتها بسهولة ، وكذلك بسبب كلاب المزرعة التي من الجائز أن تنبح

وتوقظ النيام فهذا أقرب للحرص ، كلا يا صديقي فكما تعلم لم تكن لدينا وسيلة إلى اللقاء مرة أخرى ، والاتفاق على هذا كله شفاهاة .. تعلم أني أعيش هنا أسيرة ، وأن العجوزين أصبحا لا يسمحان لي بالخروج ولا بالدخول .

آه أي زنزانة تلك التي أهرب منها .. سأهتم بأن آخذ معي زوجا من الأحذية لا غير أنتعله بمجرد أن تركب العربة ؛ لأن العشب في طرف الحديقة مبلل بالماء . كيف تسألني بعد ذلك عما إذا كنت ناوية ومستعدة ؟ فلتعلم يا حبيبي أني منذ شهور أتعباً ومنذ شهور وأنا مستعدة . وها هي ذي أعوام مضت وأنا أنتظر هذه اللحظة ! وتسألني ألن أندم على ذلك .. أنت لم تفهم إذاً أني أصبحت أمقت كل من تربطهم علاقة بي وكل ما يبقيني في هذه الدار ! .. أهذه حقاً إيزا الرقيقة المتهمية التي تتحدث إليك ! صديقي وحبيبي ماذا فعلت بي يا غرامي ؟ ! أنا هنا أختنق وأفكر في العوالم الأخرى التي تفتح لي أبوابها .. أنا ظمأى .. أو شكت أن أنسى إخبارك بأنني لم أفلح في انتزاع فصوص الباقوت من علبتها ، لأن خالتي لم تعد تترك مفاتيحها في حجرتها ولدي سوار أمي والسلسلة المطعمة ، وخاتماني وقد يكونان بلا قيمة كبيرة ، ولكنني أعتقد أن السلسلة في غاية الجمال . أما عن المال فسأبذل جهدي ولكنك أيضاً تحسن صنعاً لو حصلت على مبلغ منه . لك خالص دعواني . (الثاني والعشرون من أكتوبر الموافق عيد ميلادي الثاني والعشرين وليلة خلاصي) صديقتك إيزا .



وأفكر في رهبة ماذا لو كان عليّ أن أنسج رواية من هذه القصة الواقعية ، وفي الجهد الذي كان يتحتم عليّ أن أبذله في صياغة هذه الصفحات التي يستلزمها الإطناب . وفكرت بعد قراءتها وتساءلت في أمرها فانتهى بي التفكير إلى الحيرة والبلبل . والحقيقة أنني غرقت في وجوم أشبه بالوجوم الذي يستتبع صدمة عنيفة ، وعندما بلغ سمعي عبر اضطراب دمائي صوت الجرس يدق ويكرر الدق تبينت أنه صوت الجرس الثاني الذي يدعو للغذاء . فكيف لم أسمع الدقة الأولى؟ أخرجت ساعتني فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة فقفزت إلى الخارج في الحال أضم إلى قلبي تلك الرسالة ، واندفعت عاري الرأس تحت وابل المطر المنهمر .

وجدت آل فلوش قلقين لغياي . ولما وصلت لاهثا قيل لي : إنك أيها السيد العزيز مبلل الثياب تماما .. ورفضوا الجلوس إلى المائدة قبل أن أغير ثيابي . فما إن عدت حتى أخذ الرجل والمرأة يسألاني في تودد فوجدتني مضطراً للقول بأن المطر احتجزني داخل المنزل ، وإني ظللت أنتظر عبثاً مهلة ينتهي بعدها المطر المنهمر . فاعتذروا عن رداءة الجو وبشاعة الممرات ، واعتذروا عن دق الجرس الثاني قبل مواعده بكثير وأن الجرس الأول دق أضعف من المعتاد .. انطلقت الأنسة فيردور لتحضر شالا ، رجاني آل فلوش أن أعطي به كتفي لأنني كنت لا أزال أتصب عرقا ، ومن الجائز أن أصاب بسوء .. كان القس في تلك الأثناء يراقبني دون أن ينطق بكلمة ، وقد ضم شفثيه بشدة حتى بدا

عابس الوجه وكنت بالغ الحساسية ، بحيث شعرت تحت وطأة نظراته بالخجل والارتباك كطفل ارتكب ذنبا . ورأيت أن من الواجب التودد إليه ؛ لأنني لن أعرف شيئا بعد ذلك إلا عن طريقه ، فهو وحده الذي يستطيع أن يجلو لي ما غمض من هذا الموضوع الشائك الذي أصبحت أنجذب إليه بدافع الحب أكثر من دافع الفضول .

بعد تناول القهوة كانت السجارة التي قدمتها للقس ذريعة للمحادثة ، فتوجهنا للتدخين في تعريشة البرتقال حتى لا نضايق البارونة . بادرنى .. في لهجة ساخرة قائلا :

- كنت أعتقد أنك لن تمكث هنا أكثر من ثمانية أيام !

- هذا ما كنت أنوي عمله لولا تلطف أهل الدار ..

- ووثائق السيد فلوش ؟

- استوعبتها .. ولكنني وجدت سببا أدعى للانشغال .

انتظرت منه استفسارا ، ولكنه لم يقل شيئا فاستطردت قائلا وقد نقد صبري :

- لا بد أنك تعرف أسرار هذا القصر وخفائاه .

جحظت عيناه وقطب جبينه وتظاهر بالبراءة والبلاهة ؛ فقلت :

- لماذا لا تقيم مدام دي سان - أوريول والدة تلميذك هنا ، فتوزع

اهتمامها بين ابنها العاجز والديها المسنين ؟

ولكي يجيد تمثيل دور المندھش ألقى بسيجارته ، وفتح يديه ووضعها حول وجهه ، وهمهم قائلاً :

- ربما كانت مشاغلها تستدعي وجودها في مكان آخر . يا له من سؤال مغرض !!

- هل تريد سؤالاً أكثر تحديداً .. ماذا فعلت السيدة أو الأنسة دي سان - أوريول والددة تلميذك ليلة 22 أكتوبر ، حيث كان من المفروض أن يأتي حبيبها لاختطافها ؟

حط قبضتيه على خاصرته ، وقال :

- عجباً ! .. عجباً ! .. يا سيدي الروائي !

كنت منساقاً إلى الإفضاء له بأسراري ، وهو إفضاء لا ينبغي أن يكون إلا لشخص يبادلني ودّاً بودّ ؛ لأن هذا القس ما إن أدرك مقصدي حتى شرع يسخر مني بطريقة لا طاقة لي بها ، فأضاف قائلاً :

- ألا ترى أنك تتسرع ؟ هل لي أن أسألك بدوري كيف توصلت إلى هذه المعلومات ؟

- الرسالة التي كتبها إيزابيل دي سان - أوريول إلى حبيبها في ذلك اليوم لم يتسلمها بل تسلمتها أنا .

كان عليه أن يدرك مدى خطورتي ، ففي تلك اللحظة لمح بقعة صغيرة على كم رداؤه ، فشرع يحكها بطرف ظفره ، وبدأ يغيّر من موقفه ، وقال :

- أنا معجب بهذا السلوك .. فما إن يعتقد أحدكم أنه ولد روائيا حتى يستبيح لنفسه جميع الحقوق .. لو كان غيرك مكانك لفكر مرتين قبل أن يطلع على رسالة ليست موجهة إليه .

- بل أرجو ألا يكون قد اطلع عليها أصلا .

كنت أتفرض وجهه إلا أنه كان لا يزال يحك رداءه وقد أخفض عينيه:

- على كل حال لا أعتقد أن أحدا طلب منك أن تقرأها .

- هذه الرسالة وقعت بين يدي مصادفة .. كان المظروف رثا ومتسخا وشبه ممزق ولا يحمل أي أثر لكتابة .. وعندما فتحته وجدت رسالة موجهة من آنسة دي سان - أوريول ، ولكن إلى من كانت موجهة ؟ هيا أيها القس عاونني من كان منذ أربعة عشر عاما عشيقا للآنسة دي سان - أوريول ؟

كان القس قد وقف معتدلا فأخذ يسير طولا وعرضا في خطى قصيرة مطأطئ الرأس شابكا يديه خلف ظهره . وما إن أصبح خلف مقعدي للمرة الثانية حتى توقف .. وشعرت فجأة بيديه تستقران فوق كتفي ..

- أرني هذه الرسالة ؟

- هل ستتكلم ؟

شعرت بقبضتيه ترتجفان من اللهفة :

- آه ! لا تشترط .. أرجوك أرني هذه الرسالة فحسب ؟

- دعني أذهب لإحضارها .

فلتها محاولا الإفلات منه ..

- إنها معك هنا .. في حقيبتك .

كانت عيناه مركزتين على مكان الرسالة ، كما لو كانت سترقي تشف عنها ، ولعله يقوم بتفتيشي .

كان وضعي لا يسمح بالدفاع عن نفسي خاصة ضد عملاق أقوى مني ، ثم ما السبيل بعد ذلك إلى حمله على الكلام ! .. التفت فإذا بوجهه يكاد ينطبق على وجهي . كان وجهها منتفخا متورما خط جبينه عرقان ضخمان ، وأسفل عينيه جيوب بغیضة تكلفت الضحك خشية أن يفسد كل شيء بيننا ، وقلت له :

- عفوا أيها القس . أعترف أنك مثلي تعاني من الفضول .

أخلى سبيلي فنهضت في التو .. وتظاهرت بالخروج ..

- لو لم تتبع معي أساليب قطاع الطرق لأريتك الرسالة ..

ثم قلت وأنا أمسكه من ذراعه :

- فلنقرب من قاعة الاستقبال لأتمكن من طلب النجدة ..

كنت أبذل مجهودا خارقا لأحافظ على روح الدعابة في لهجتي إلا
أن قلبي كان يدق بشدة .

- خذ اقرأها أمامي .. أريد أن أرى كيف يقرأ القس رسالة غرامية.
قلت ذلك وأنا أخرج الرسالة من جيبي .

لكنه تمالك نفسه من جديد ولم يظهر أي انفعال إلا من خلال
رعشة خفيفة في عضلة صغيرة على خده كان من المستحيل إخفاؤها .
قرأ الرسالة ، ثم تشمم الورقة وهو يقطب حاجبيه في شدة ، وبطريقة
يبدو منها أن عينيه تسخطان على أنفه ، ثم أعاد طي الرسالة وردّها
إليّ، وقال بلهجة شبه رسمية :

- في ذلك اليوم الثاني والعشرين من أكتوبر قُتِلَ الفيكونت يليز
جونفريفيل في حادث أثناء قيامه بالصيد .

- انتفضت فزعا لما يقول (فسرعان ما نسج خيالي قصة مأساة
مروعة) ويجب أن يعرف أنني عثرت على هذه الرسالة خلف أخشاب
الدار .. وما من شك في أنه كان من المفروض أن يحضر إلى ذلك المكان
ليتسلمها .

عندئذ أخبرني القس أن أكبر أبناء جونفريفيل ، وكانت ضيعتهم
تجاور ضيعة آل سان - أوربول قد وجد قتيلا بجوار حاجز من
الحواجز، كان فيما يبدو يريد أن يجتازه عندما أتى بحركة خرقاء
فانطلق عيار من بندقيته ، ومع ذلك لم يعثر في ماسورة بندقيته على

خرطوش العيار ، ولم يتقدم أحد بأية معلومات عن الحادث ..
فالشاب كان قد خرج بمفرده ، ولم يره أحد .. إلا أنه في اليوم التالي
عثر المارة على كلب من كلاب الكارفورش يلحق في بركة من الدماء
بالقرب من الداز .

أردف القس قائلا :

- لم أكن بعد قد حضرت إلى قصر الكارفورش ، ولكنه يبدو لي طبقا
للمعلومات التي تمكنت من جمعها أن جراسيان هو الذي ارتكب
الجريمة ، فليس من المستبعد أن يكون قد اكتشف ما كان بين سيده
والفيكونت من علاقات ، وربما علم كذلك بموضوع هروبها (وهو
موضوع كنت أجهله أنا نفسي قبل أن أقرأ هذه الرسالة) فهو خادم
عنيد شرس لا يتورع عن إتيان أي فعل في سبيل الذود عن حمى سادته .

- ولماذا لم يقبض عليه ؟

- لم يكن لأي أحد مصلحة في اتهامه ، وكان آل جونفريفييل وآل
سان - أوريول يخشيان ما قد يثار من شائعات حول هذا الحادث
المفجع ، فضلا عن أنه بعد بضعة شهور وضعت الأنسة دي سان -
أوريول طفلاً بائساً ، ويرجع الناس عاهة كازيمير إلى ما اتخذته أمه من
تدابير بهدف إخفاء حملها ، لكن الله يعلمنا أن عقاب الآباء غالبا ما
يقع على الأبناء . تعال معي إلى الدار فأنا مشوق لرؤية المكان الذي
عثر فيه على الرسالة .

كانت السماء قد عادت إلى صفائها فاتخذنا طريقنا إلى الدار معا ،
وذهبنا على خير .. فقد أمسك القس بذراعي ومضينا في خطى
متساوية نتحاور بلا صدام ، لكن الأمر فسد عند العودة فلا شك أن
غرابية الحادث أثرت في نفس كل منا بطريقة مختلفة . أما أنا فأمام ما
أظهره القس من حس التلطف في إطلاعي على المعلومات ، وأنا
نسيت مايمليه رداءه من احترام وهيبة كما نسيت تحفظي ، فقد
وجدتني أتحدث إليه كما لو كان رجلا عاديا .. ولكن كيف دبّ
الخلاف بيننا ؟! .. كنت أقول له :

- من ذلك الذي يحكي لنا ما فعلته الأنسة دي سان - أوربول في
تلك الليلة ! فما من شك أنها لم تعلم بخبر موت الكونت إلا في
الصباح ! فهل انتظرت في الحديقة ؟ وحتى متى ؟ وماذا اعتقدت
عندما لم يأت ؟

كان القس يلزم الصمت تماما دون أن يتأثر لشاعريتي ، فعدت
أقول :

- تصور هذه الفتاة الرقيقة وقلبها مثقل بالغرام والأسى ، ورأسها
مغمم بالهوس .. إيزابيل المتيمة !

همس القس :

- قل إيزابيل الفاجرة !

واصلت حديثي كأنها لم أسمع همسه ، ولكنني كنت قد صممت
على الدفاع عنها لو عاد إلى مهاجمتها :

- فكر في كل ما كانت تعلقه من أمل وما انتابها من يأس ..
قاطعني في جفاء :

- لماذا تفكر في هذا كله ! ليس علينا أن نعرف عن الأحداث سوى
ما يفيدنا ..

- ولكن الفائدة تختلف باختلاف المعلومات التي نعرفها .
- ماذا تقصد بذلك ؟

- معرفتنا السطحية بالأحداث لا تتفق ومعرفتنا العميقة التي
نستطيع فيما بعد أن نتوصل إليها ، وأن المعلومات التي تستخلصها من
هذين النوعين ، من المعروف أنها لا تكون واحدة ، وأن من الخير أن
نتمعن الأمور ونتقصاها قبل أن نخلص إلى النتائج .

- صديقي الشاب .. اعلم أن الميل إلى التمعن والتقصي وحب
الانتقاد هي جرثومة التمرد . إن الرجل العظيم الذي اتخذته مثالا كان
أحرى به أن يعلمك أن ...

- تقصد ذلك الذي أكتب عنه رسالتي ؟

- يالك من مناكف لحوح بمثل هذه الروح ...

- بالله عليك ألا أخبرتي يا سيدي القس ، أليس هذا الفضول نفسه هو الذي جعلك تصحبنى في هذا الوقت ودفعك منذ برهة إلى مكان الرسالة ، وحدا بك إلى معرفة كل هذا الذي أخبرتي .

وكان قد أسرع خطاه وغدت لهجته قاطعة ، وجعل يضرب الأرض بعصاه زهقا وتبرما :

- أنا لا أبحث مثلك عن تفسيرات ، فما إن أعلم بالحادث حتى أقتصر على معرفته . الوقائع الخطيرة التي أخبرتك بها تعلمني إذا كانت لا تزال هناك حاجة إلى تعليم بشاعة الرذيلة التي يردينا فيها الجسد ، وفيها إدانة للطلاق ولكل ما تفتق عنه عقل الإنسان ليتجنب نتائج ما جنته يده من أخطاء . أظن أن في هذا الكفاية .. أليس كذلك؟

- ليس في هذا الكفاية ! الواقعة لا تعينني في شيء طالما لم أصل إلى أسبابها فمعرفة الجانب الخفي في حياه إيزابيل دي سان - أوربول والاطلاع على المسالك العطرة الشجية المعقدة ...

- حذارِ أيها الشاب بدأت تميم بها !

- آه .. هذا ما كنت أتوقعه ! المظهر لا يكفيني الآن ، وقد اكتفى بالأقوال والإشارات .. أوافق أنت من أنك لا تسيء الحكم على هذه المرأة؟

- إنها فاجرة !

أهلب الغيظ رأسي ، ولم أتمكن من كتمانها إلا بمشقة بالغة :

- سيدي القس مثل هذه الألفاظ تدهشني عندما تخرج من فمك ،
ويبدو لي أن المسيح يعلمنا أن الصفح أجمل من التنكيل .

- فارق بسيط بين التسامح والمجاملة ..

- لو قدر له أن يكون مكانك لما قضي عليها بمثل ما فعلت .

- أولا هذه الأمور لا تدري عنها شيئا ، ثم إن المعصوم من الخطايا
يستطيع أن يكون أكثر تسامحا حيال الآخرين من ذلك الذي .. أعني
أننا نحن العصاة ليس لنا أن نتحلل الأعذار للمعاصي .. كل ما علينا
هو أن نتبعد عنها بوجوهنا في استنكار ..

- بعد أن نتشممها كما تشممت أنت عطر هذه الرسالة !

- أنت وقح !

ابتعد عن الطريق فجأة وانطلق مسرع الخطى متخذاً طريقاً ضيقاً
قريباً ، وهو يرمني على طريقة « البارتين » بعبارة جارحة لم أُمِزَّ منها
سوى هذه الألفاظ : تعليم حديث سوربوني زنديق .

عندما التقينا على العشاء كان لا يزال عابسا ، ولكنه ما إن تركنا
المائدة حتى أقبل نحوي مبتسما ، وقدم لي يداً شددت عليها وأنا أبتسم
أنا الآخر .

بدت لي السهرة أكثر مللا من المعتاد . كان البارون يشن في هدوء إلى جانب النار . كان السيد فلوش والقس ينقلان نردهما دون كلام . وبطرف عيني رأيت كازيمير وقد دس رأسه بين يديه .. يسيل لعبه ببطء فوق الكتاب فيمسحه مرارا بحركة من منديله . أما أنا فلم أهتم بلعبة البيريج دون أن أسبب خسارة مروعة مخزية لزميلتي . وكانت مدام فلوش تلاحظ وتجزع لضجري ، فكانت تبذل جهدا كبيرا لتثير حماسة في اللعب .

- هيا يا أوليمب ! هذا دورك هل تنامين ؟

لم يكن النعاس ولكنه الموت الذي أصبحت أشعر بخدره الغامض يجمّد أهل الدار وأنا نفسي كنت أشعر بالقلق ، بل بالضيق يطبق على صدري . أخذت أحاطب نفسي وأنا أفكر في إيزابيل قائلا : « أيها الربيع ، أيتها الرياح الهائلة ، أيتها العطور الجذابة ، أيتها الموسيقى العذبة لن تصلي إلى هذا المكان مطلقا . ما أبشع القبر الذي أفلتت منه وإلى أي حياة يا ترى ! انطلقت .. إنني أتخيلك هناك في ضوء المصباح الهادئ وقد وضعت جبينك الشاحب على أناملك الرقيقة وخصلة من شعرك الفاحم تلامس معصمك وتداعبه . ما بال عينيك تتطلعان بعيدا .. وما هذا الضجر الذي يعانیه جسمك ، وروحك تعبر عنه هذه الزفرة التي لا يسمعونها ؟ ومني أنا أيضا ودون أن أدري أفلتت زفرة هائلة أقرب إلى التثاؤب أو البكاء حتى أن مدام دي سان - أوربول بساحت وهي تلقي بآخر ورقة على المنضدة :



- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب رغبة شديدة في النوم .

يا لها من امرأة مسكينة !

في تلك الليلة رأيت حلما في المنام .. لم يكن في البداية سوى تكملة للواقع ؛ فقد رأيت أنني لا أزال في حجرة الاستقبال قبل أن تنتهي لسهرة تماما إلى جوار أهل الدار ، ولكن جماعة أخذ عددها يزداد كانت تنضم إليهم ، مع أنني لم أر أحدا يدخل علينا ، تعرفت على كازيمير وهو يجلس إلى المنضدة أمام إحدى الألعاب ، وكان ثمة ثلاثة أو أربعة رجال منكبين على اللعبة .. كان الموجودون يتحدثون بصوت منخفض ، بحيث لم أتمكن من تمييز عبارة واحدة مما يقولون ، ولكنني فهمت أن كل شخص يخبر جاره بأمر ما يثير دهشته ، كان الاهتمام موجها إلى مكان بالقرب من كازيمير ، حيث تعرفت فجأة على إيزابيل دي سان - أوريول وهي جالسة إلى المائدة (كيف لم أراها من قبل !) كانت وحدها ترتدي ثيابا بيضاء وسط الحُلل القاتمة . لاحت لي في البداية جميلة ساحرة شبيهة بالصورة ، ولكنني سرعان ما أخذت بجمود ملاحظها وثبتت نظراتها ، وأدركت فجأة ما كان يهمس به القدر .

لم تكن مَنْ أمامي هي إيزابيل الحقيقية ، ولكن دمية تشبهها وضعت مكانها أثناء غياب الأصل . وعندئذ بدت هذه الدمية قبيحة دمية . ضاق صدري أمام مظهر غباثتها المتحذلق ، كان المشاهد يعتقد أنها ساكنة تماما ولكنني وأنا أحقق النظر فيها رأيتها تميل ببطء إلى جانب ، تميل وتميل حتى كادت تسقط . فانطلقت الأنسة أوليمب من

الطرف الآخر لحجرة الاستقبال ، مالت حتى بلغت الأرض ورفعت غطاء الكرسي الوثير وملأت زنبركا أخذ يصدر صريرا عجييا . فإذا بالمسخة تعتدل وتحرك ذراعيها حركة آلية غريبة تثر الضحك - نهض الجميع عندما حان وقت الانصراف تاركين خلفهم إيزابيل المزيفة وحدها .. كان كل فرد من المنصرفين يحياها بانحناءة على الطريقة التركية ، فيما عدا البارون الذي اقترب منها دون مبالاة وأمسك شعرها المستعار وطبع على جبينها قبلتين رنانتين وهو يضحك مقهقها . وما إن خلت حجرة الاستقبال من الزوار وقد رأيت عددا غفيرا ينصرف - حتى أطبق الظلام ، ورأيت رغم الظلام تلك الدمية وقد شحب لونها ، وانتفض جسدها وسرت فيها الحياة .. كانت تنهض ببطء فإذا بها الآنسة دي سان - أوربول بشحمها ولحمها . توجهت نحوي بلا وضوء وسرعان ما شعرت بذراعيها الفاترتين تطوقان عنقي واستيقظت على لفح أنفاسها ، وهي تقول لي :

- أنا بالنسبة لهم غائبة أما بالنسبة لك فأني حاضرة .

لست متطيرا ولا هيايا .. وإذا كنت قد أشعلت شمعتي فذلك لكي أصرف عن عيني وعن رأسي هذه الصورة المائلة أبدا .. ولقد تجشمت مشقة كبيرة في سبيل ذلك . وعلى الرغم مني كنت أنصت على كل صوت عساها تكون موجودة .. وعبثا شغلت نفسي بالقراءة فلم أتمكن من صرف انتباهي عنها إلى أي شيء آخر . وهكذا وأنا غارق في التفكير فيها عاودني النوم حتى الصباح .

هكذا فترت الحماسة التي لازمت فضولي العاشق ، ولم أستطع تأجيل رحيلي أكثر من ذلك بعد أن أخبرت به أهل الدار مرة أخرى .. كان ذلك اليوم هو آخر أيامي في الكارفورش . الآن نحن على الغذاء في انتظار البريد الذي اعتادت ديفلين أن تحمله إلينا قبل الحلوى . وكما سبق وقلت إنها تسلمه لمدام فلوش فتتولى بدورها توزيع الرسائل وتقديم جريدة « الحوار » للسيد فلوش ، الذي يتوارى خلف صفحاتها حتى يغادر المائدة .. في ذلك اليوم تعلق مظروف بنفسجي اللون بالجريدة انفصل عن الحزمة وطار حتى وقع فوق المائدة بجوار صحن مدام فلوش . تمكنت من التعرف على الخط الكبير غير المنظم الذي دق له قلبي مساء أمس ، وكذلك مدام فلوش فيما يبدو فأنت حركة سريعة لتغطي المظروف بصحنها . إلا أن الصحن اصطدم بكوب فكسره وسال النيذ فوق المفرش .. أحدث ذلك ضوضاء عالية ، فانتهزت مدام فلوش الاضطراب وأدخلت المظروف في قفازها .

قالت في سداجة طفل يبحث عن عذر :

- أردت أن أسحق عنكبا .

كانت لا تفرق بين العناكب وغيرها من الحشرات التي تخرج في بعض الأحيان من سلة الفواكه .. نهضت مدام دي سان - أوربول ملقية منشفتها فوق المائدة ، وقالت بلهجة حادة :

- أراهن أنك أخطأت هدفك .. إلحقي بي في حجرة الاستقبال .. معذرة أيها السادة فقد عاودني المغص .

انتهى العشاء في صمت - لم ير السيد فلوش شيئا ولم يدرك السيد دي سان - أوربول شيئا . كذلك كان القس والأنسة فيردور يركزان البصر كل في صحنه . ولو لم يتمخط كازيمير لرأيته ييكبي .

كان الجو فاترا ، أحضرت الأنسة فيردور القهوة إلى الشرفة الصغيرة التي تؤدي بسطتها إلى حجرة الاستقبال ، كنت أتناول القهوة مع الأنسة فيردور والقس - بلغت آذاننا ضوضاء وأصوات تجيء من حجرة الاستقبال التي كانت السيدتان بداخلها - ثم لم نعد نسمع شيئا فقد صعدت السيدتان ولو صدقت ذاكرتي دارت مشاحنة شجرة الزان ذات أوراق البقدونس .

كانت الأنسة فيردور والقس في حالة حرب دائمة . ولم تكن المعارك بينهما خطيرة تماما ، فقد كان القس يستهدف الضحك والمزاح إلا أن أكثر ما كان يثير ضحك الأنسة فيردور هي لهجة القس الساخرة التي كان يتحدث بها . كانت تعرض نفسها لضربات فيكيل لها في الصميم وكان لا يكاد يمضي يوم واحد دون أن ينشب بينهما صدام ..

كان القس يسميه مشاحنة ، ويزعم أن صحة الأنسة في حاجة إلى مثل هذه المشاحنات ! فيفعل بها ما يشاء وتطيعه منفذة ما يريد كما الكلب المطيع .. لم يكن شرسا أو ميالا للإيذاء مع أن تصرفاته معها لم تكن تخلو من المكر والخبث وإثارة الأعصاب .. كان هذا يشغل أوقاتها ويملا الحياة من حولها بهجة ومرحا .

كانت الحادثة التي وقعت أثناء تناول الحلوى قد أثارت أعصابها.. حاولت أن أبعد الأذهان عنها عندما كان الأب يصب القهوة ، فعثرت يدي على حزمة من أوراق الشجر داخل سترتي كنت قطفتها من شجرة غريبة بجوار الباب الحديدي للمدخل لكي أسأل الأنسة فيردور عن اسمها . لم يكن ذلك ، لأنني شغوف بمعرفتها لكن لأن الأنسة فيردور كانت تسر عندما يلجأ إليها أحد ليستفسر منها عن أي شيء .

كانت تهتم بعلم النبات . وكانت في بعض الأيام تخرج لجمع الأعشاب ، وقد علقت فوق كتفيها القويتين نحلة خضراء تبدو غريبة الشكل . وتقضي بين أعشابها ومجهرها ما تسمح به أعمال المنزل من فراغ . وعلى ذلك تناولت الأنسة فيردور الفص ، وقالت بلا تردد :

- ياله من اسم غريب ، ومع ذلك فهذه الأوراق المدببة لا علاقة لها إطلاقا بأوراق ...

كان القس يضحك في خبث منذ برهة .. قال دون أن يعير الأمر اهتماما :

- هكذا يسمون في الكارفورش شجرة « الفاجوس بيرسيسيفوليا ».

انتفضت الآنسة فيردور وعلقت بقولها :

- لم أكن أعتقد أنك تفهم في علم النباتات إلى هذا الحد !

- كلا ، ولكني مُلم إلى حد ما باللغة اللاتينية ..

مال عليّ وأضاف قوله :

- هؤلاء السيدات يقعن ضحية خطأ لا دخل لهن به . إن كلمة بير

سيكوس يا آنستي العزيزة تعني الخوخ ، وليس البقدونس ، وعلى ذلك فإن « الفاجوس سيسيفوليا » التي لاحظ السيد لاكاز أوراقها المديبة هي « شجرة الزان » ذات أوراق الخوخ .

كان وجه الآنسة فيردور قد امتقع لونه .. وكان الهدوء الذي أظهره القس قد أهاج أعصابها ، إلا أنها استطاعت أن تقول دون أن تنظر إليه :

- علم النبات الصحيح لا يهتم بالشواذ ولا بالمسوخ ..

ثم أفرغت فنجانها مرة واحدة ومضت مثل الريح ..

كان القس قد ضم شفثيه فأصبح فمه مثل مؤخرة الدجاجة ، وجعلت تخرج منه أصوات أشبه بالضراط .. وبذلتُ مجهودًا كبيرًا حتى لا أضحك .

- هل أنت شرس إلى هذا الحد يا سيدي القس ؟

- كلا ، كلا هذه الآنسة عليها أن تؤدي التمرينات بها فيه الكفاية ،

وهي في حاجة إلى أن تلهب دمهها . وهي تميل إلى العراك .. هل تتصور

أني لو ظللت ثلاثة أيام دون أن أناوشها نجىء بنفسها وتبدأ العراك ،
ثم إن وسائل اللهو في الكارفورش ليست كثيرة .

عندئذ شرع كلانا دون كلام في التفكير في رسالة الغذاء ، ثم
بادرت بسؤاله :

- هل عرفت الخط ؟

هز كتفيه قائلاً :

- قبل الآن أو بعد قليل تصل مثل هذه الرسالة إلى الكارفورش
مرتين كل عام ، بعد سداد إيجارات المزرعة ، وفيها تعلن عن
حضورها .

صحت قائلاً :

- هل ستحضر ؟

- لا عليك ! لا عليك فلن تراها !

- ولماذا لا أراها ؟

- لأنها تجلس في منتصف الليل وترحل فوراً ، ثم إنها تتجنب
العيون ... وحذارٍ من جراسيان .

كان ينظر في وجهي بإمعان فلم أحرك ساكناً ، استطرد ببلهجة محتدة:

- لن تعمل حساباً لما قلته لك .. هذا واضح ، ولكنني أنذرك فافعل
ما يبدو لك وأخبرني غداً .

نهض وتركني دون أن أتمكن من معرفة هل كان يحاول أن يجد من فضولي أم كان يشره ويلهبه ! حتى المساء ظل فكري الذي لا أحب أن أصف اضطرابه لا شاغل له إلا انتظارها . فهل من الممكن أن أكون وقعت في حب إيزابيل ! كلا بالطبع ولكنني تماديت في لهوي حتى تحرك قلبي . بكل هذا العنف فكيف لا يختلط عليّ الأمر ؟ لقد صادفت في فضولي كل ما يصحب الغرام من شوق وارتباك ولهفة ولم تزدني كلمات القس الأخيرة غير حماسة وتصميم ، وماذا يمكنه أن يفعل بي جراسيان ؟ سوف أسير فوق الشوك والجمر لو اقتضى الأمر .
لاشك أن أمرا ما غير عادي كان يدبر . ففي المساء لم يقترح أحد اللعب ، وما أن انتهينا من العشاء حتى بدأت مدام دي سان - أوريول تشكو مما كانت تطلق عليه « رفضا » - وإذ بها تنسحب دون استئذان بينما تُعد لها الأنسة فيردور شرابا ساخنا . وما هي إلا لحظات حتى طلبت مدام فلوش من كازيمير أن يذهب لينام . وما أن انصرف الصبي حتى قالت لي :

- أعتقد أن السيد لاكاز يرغب في النوم أيضا فيبدو أن النعاس يداعب أجفانه .

ولما لم أجب على تعليقها أضافت قولها :

- آه .. أعتقد أن ما من أحد سيطيل السهر أكثر من ذلك ..

نهضت الأنسة فيردور لتشعل الشموع وسرت في أثرها أنا والقس .. فرأيت مدام فلوش تميل على زوجها الذي كان يغط في نومه

فوق المقعد بالقرب من الموقد فنهض من فوره ، ثم سحب البارون من ذراعه فأطاعه هو الآخر كما لو كان يدرك معنى تلك الحركة .. وعلى بسطة الطابق الأول كان كل منا يحمل شمعته فانصرف كلانا إلى حجرته .. وعندئذ قال القس بابتسامة غامضة :

- طابت ليلتك ! هنتت بنومك .

أغلقت باب حجرتي .. ومكثت أترقب .. لم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة حتى سمعت مدام فلوش وهي تصعد إلى حجرتها ، ثم سمعت الأنسة فيردور .. وقعت مشادة حامية على بسطة السلم بين مدام فلوش ومدام دي سان - أوريول التي كانت قد خرجت من حجرتها . وكانتا بعيدتين عني بحيث لم أتمكن من تمييز ما تبادلنه من الألفاظ ، ثم سمعت ضوضاء أبواب تغلق ، ثم لم أعد أسمع شيئاً .

تمددت في فراشي حتى أنصرف إلى التفكير .. فاستعدت التمنيات الطيبة بالنوم الهانئ .. والتمنيات التي ودعت بها القس ، وتمنيت لو عرفت هل تبيأ هو للنوم أم أنه استعد للفضول الذي أنكره أمامي ؟ ولكنه كان يرقد في جناح آخر من القصر يقع في الطرف المقابل لحجرتي ، ولم يكن هناك من سبب وجيه يبرر انتقالي إليه . ومع هذا فمن منا سيكون أكثر حرجاً لو فاجأ الآخر في الدهليز ؟ .. وبينما أنا غارق في التفكير وقع لي حادث سخيّف مخجل لا يمكن أن أصرح به فغلبني النوم . أجل فالإجهاد الذي تملكني من طول الانتظار بعد

الليلة السابقة التي أمضيتها أرقا قلقا تغلب على رغبتى وحرصى على البقاء ساهرا يقظا فاستغرقت في نوم عميق .

استيقظت على طقطقة الشمعة وهي توشك على النفاد ، أو ربما استيقظت على حركة هزت أرضية الدهليز في صوت مكتوم سمعته أثناء نومي ، ولا شك أن أحدا سار في الدهليز فاعتدلت جالسا .. في تلك اللحظة انطفأت شمعتي فظلمت في ظلام الليل حائرا ولم يكن معي ما يضيء غير بضعة أعواد من الثقاب حككت إحداها لأتبين الوقت من ساعتى .. كانت الحادية عشرة والنصف .. فأرهفت سمعى ولكنى لم أعد أسمع شيئا .. قمت أتحسس طريقي حتى بلغت باب الحجره ففتحته .

كلا لم يكن قلبي يدق رجفة أو اضطرابا ، بل كنت أشعر أننى خفيف الجسم رابط الجأش مطمئن النفس متفتح الذهن حازم الأمر .

في الطرف الآخر للدელიز كانت ثمة نافذة ترسل ضوءها فيصلني غير رائق ولا صاف كضوء الليالي الهادئة ، وإنما ضوء خفاق ينجلى حينا ويستتر حينا آخر ؛ فقد كانت السماء تمطر وكانت الرياح أمام القمر تحمل سحبا كثيفة . كنت قد خلعت حذائى فتقدمت من دون ضوضاء .. لم أكن بحاجة إلى إمعان النظر لأصل إلى المكان الذي كنت أعدده للمراقبة . كان يمثل حجرة صغيرة مهجورة بجوار حجرة مدام فلوش حيث كان يدور الهمس بعيدا عن العيون .. كان السيد فلوش يشغل هذه الحجرة في البداية (لكنه أصبح الآن يفضل كتبه

على زوجته) وكان الباب الذي يصل إليها قد فتح قليلا ، وكنت قد أحكمت إغلاقه بالمزلاج حتى أتجنب المفاجأة .. فتأكدت أنني أستطيع أن أنظر بعيني من تحت إطار الباب .. ولكي أبلغ ذلك كان لابد لي أن أجلس فوق خزانة كنت قد دفعتها قريبا من المكان .

في تلك اللحظة كان يتسرب من تلك الفتحة بصيص من النور ينعكس على سقف الحجرة الأبيض فيهديني ويرشدني ، ووجدت كل شيء على حاله التي تركته عليها في النهار . صعدت فوق الخزانة وتحولت ببصري في أرجاء الحجرة المجاورة .

كانت إيزابيل دي سان - أوريول موجودة .

كانت أمامي على بعد خطوات مني .. جالسة على مقعد منخفض دون مسند ، وقد تسبب وجوده في تلك الحجرة العتيقة في دهشتي ؛ لأنني لا أذكر أنني رأيته فيها عندما دخلتها أحمل الزهور .. كانت مدام فلوش تجلس غارقة في مقعد وثير ضخم . كان إلى جانب المقعد منضدة صغيرة عليها مصباح يلقي عليها وعلى الأنسة إيزابيل ضوءا خافتا .. كانت إيزابيل تدير لي ظهرها وكانت تميل إلى الأمام فتكاد تكون راقدة في حجر خالتها العجوز بحيث لم أتمكن في البداية من رؤية وجهها . وسرعان ما رفعت هامتها وكنت أتوقع أن أراها وقد تقدمت في السن . مع أنني لم أكد أتعرف في وجهها على تلك الفتاة التي طالعتها في الصورة . وهذا لا يعني أنها كانت أقل جمالا من الصورة ، بل كان جمالها من نوع آخر جمال أقرب إلى عالم الأرض ودنيا البشر .



إن تلك البراءة الملائكية التي تطالعها في الصورة زالت ليحل مكانها وجه ناعس ساهم عاطفي . ارتسمت في طرفي شفيتها علامة تنم عن نفور لا أدري كنهه بينما كانت في الصورة فاعرة الشفتين ، وكانت تتدثر معطف سفر ضد الماء من قماش شائع في ذلك الوقت . ولما كان المعطف مرفوعا من ناحية ، فقد أبان عن ثوب أسود لامع تدلت عليه يد تعرت من قفازا تمسك بمنديل ، وكانت هذه اليد تبدو شاحبة هزيلة بطريقة غريبة .. كان رأسها مكسوا بغطاء من اللباد والريش المموج ، يحيط به شريط من الحرير تدلت من تحته خصلة من الشعر الفاحم . وما إن تميل برأسها حتى تنطرح إلى الأمام فتحجب وجتها .. كان الناظر يظنها في لباس حداد لولا شريط لامع أخضر يطوق رقبتها . لم تكن تنطق بكلمة لاهي ولا مدام فلوش إلا إنها كانت تربت بيدها على ذراع مدام فلوش وتجذبها نحوها ، ثم ما لبثت أن انهالت عليها لثما وتقبيلا .

رأيتها بعد ذلك تهز رأسها فتتأيل خصلات شعرها وتهفف ذات اليمين وذات اليسار ، وعندئذ قالت وكأنها تعقب على عبارة قالتها من قبل :

- كل الوسائل . لقد جربت كل الوسائل .. أقسم لك ..

فقاطعتها العجوز ، وهي تضع يدها فوق جبين الفتاة :

- لا تقسمي يا بنيتي المسكينة أصدقك دون قسم ..

كل منها كانت تتحدث بصوت منخفض أشبه بالهمس كما لو كانتا تخشيان أن يسمعها أحد .. اعتدلت مدام فلوش في جلستها ودفعت ابنة أختها برقة ، ثم استندت على ذراعي المقعد ونهضت . وبالمثل نهضت الآنسة دي سان - أوريول ، وبينما كانت العجوز تتجه نحو الخزانة التي كان كازيمير قد أخرج منها الصورة أول أمس ، تقدمت الفتاة في الاتجاه نفسه بضع خطوات وتوقفت أمام مائدة صغيرة ملتصقة بالجدار وفوقها مرآة كبيرة .. وبينما كانت العجوز تنقب في أحد الأدراج لمحت الآنسة في المرآة الشريط الزمردي الذي يطوق عنقها فبادرت بنزعه بسرعة ولفته حول أصبعها .. وقبل أن تلتفت مدام فلوش كان الشريط قد اختفى . كانت إيزابيل قد اتخذت هيئة التفكير والتأمل وتدلّت يدها إلى الأمام متشابكتين وغابت نظرتهما .

كانت مدام فلوش لا تزال تمسك بإحدى يديها بحزمة المفاتيح ، وفي يدها الأخرى لفة صغيرة من الأوراق أخرجتها من الدرج ، وكانت تهم بالجلوس في مقعدها الوثير عندما فتح الباب المواجه للباب الذي كنت أقف عنده فجأة وعلى سعته كدت أصبح من هول الدهشة ، فقد ظهرت البارونة في إطار الباب شعثاء مكشوفة الجبين مخضبة الوجه في ثياب فضفاضة وعلى رأسها غطاء ضخّم من الريش . كانت تحمل شمعدان ذا ست شعب أخذت تهزّه بعنف .. كانت كل شموعه مشتعلة فتغمرها بضوء خفاق ، وتنشر على الأرض

قطرات من النور . ولما كانت منهكة القوى أسرعت بوضع الشمعدان فوق المائدة الصغيرة التي تحمل المرأة ، ثم عادت بأربع خطوات خفيفة إلى مكانها في إطار الباب وتقدمت من جديد في خطى منظمة وبطريقة مهية تشيح بيدها المثقلة بالخواتم الضخمة ، وما إن بلغت منتصف الحجرة حتى توقفت والتفت مرة أخرى ناحية ابنتها ، وقالت وهي لا تزال متوترة الحركة بصوت يكاد يخترق الجدران :

- إليك عني أيتها الابنة العاقة لن أتاثر بدموعك وشكواك التي ضلت طريقها إلى قلبي إلى الأبد .

جاء قولها بطريقة خطابية شبيهة بالصراخ بنغمة واحدة . وهنا كانت إيزابيل قد ارتمت عند قدميها وأمسكت بطرف ثوبها وجذبتة كاشفة عن حذاءين صغيرين من الحرير الأبيض ، وأخذت تضرب بجبينها الأرض التي كان يكسوها بساط .. إلا أن مدام سان - أوربول لم تخفض بصرها لحظة واحدة واستمرت تصوّب نظراتها حادة جامدة كصوتها إلى الأمام ، ثم قالت :

- أو لم تكتفي بجلبك الشقاء لأهلك وتريدين أن تتماذي .. عندئذ خانها صوتها فجأة فالتفت ناحية مدام فلوش ، وكانت هذه قد تضاءلت وأخذت ترتجف في مقعدها الوثير وخاطبتها قائلة :

- أما أنت يا شقيقتي فلو كان الضعف لا يزال ..

ثم استدركت قائلة :

- لو دفعك ضعفك الآثم إلى النزول مرة أخرى على تضرعاتها ،
ولو كان ذلك بقبلة ، ولو كان ذلك بأقل عطاء فتأكدي مثل تأكيدك
بأنني شقيقتك أني سأهجرك .. ولن ترى وجهي ماحيت .

كنت كما لو كنت في مسرح ولكن لما كانت هاتان السيدتان
لا تتمكنان من ملاحظة نفسيهما فلم يأتى كأنتا تمثلن هذه المأساة ؟
كذلك كانت الفتاة مبالغة في حركاتها وإيماءاتها متكلفة مثل أمها ..
كانت الأم تواجهني بحيث كنت أرى إيزابيل من ظهرها وقد ركعت
وانحذت وضع استير الأسطوري وهي تتضرع ، وإذا بي أرى قدميها
المتنعلتين حذاء حريريا بلون الخوخ . هكذا بدائي تحت طبقة الوحل
التي كانت تعلوه .. كانت ترتدي جوربا أبيض رأيت أعلى الحذاء ،
وقد ترك عليه طرفي الثوب المبلل الموحد عندما رفع بقعة قذرة ..
وفجأة دوى في أعماقي كل ما تحكيه هذه الأشياء من مغامرات وشقاء
فاق في قوته شتائم العجوز .. وإذا بعبرة تخلق حلقي فقررت أن الحق
بـ «إيزا» في الحديقة عندما تغادر القصر .

عندئذ كانت مدام فلوش قد تقدمت ثلاث خطوات مقتربة من
مقعد مدام دي سان - أوربول :

- هيا أعطني هذه الأوراق المالية .. أعتقدين أني لا أراها وأنت
تفركيها تحت قفازك ؟ أعتقدين أني عمياء أو مجنونة ؟ أعطني هذه

النقود قلت لك ، وما إن استولت على النقود حتى قربتها من هب
إحدى شموع الشمعدان بطريقة مسرحية ، وهى تقول :
- أفضل أن أقوم بإحراقها جميعا (مع إنها لم تفعل ذلك) على أن
أعطيها فلسا واحداً .

دست الأوراق المالية في جيبها واستأنفت قولها :
- أيتها الابنة العاكة .. أيتها الابنة الجاحدة .. الطريقة التي سلكتها
أساوري وعقودي ستجعلين خواتمي تسلكها هي الأخرى !
كانت تقول ذلك وهى تهز يدها الممدودة في حركة خفيفة فسقط
خاتمان فوق البساط ، فما كان من إيزابيل إلا أن انقضت ككلب جائع
ينقض على العظام !

- انصرفي الآن لم يعد بيننا ما يقال أنا بريئة منك ..
تناولت مطفأة للشموع من فوق المنضدة ، وأخذت تطفئ الواحدة
بعد الأخرى ، ثم انصرفت .

بدت الحجرة مظلمة كانت إيزابيل قد نهضت فمررت أصابعها على
وجنتيها وطرحت خصلاتها إلى الخلف وهى متناثرة وأصلحت من
وضع قبعتها .. هزت جسدها فعدلت المعطف الذي انحسر عن كتفيها
قليلا ، ثم مالت على مدام فلوش لتودعها .. لاح لي أن المرأة المسكينة
كانت تحاول أن تحدثها ، فما كان من إيزابيل إلا أن تناولت إحدى يدي
العجوز المرتجفتين وضغطت عليها بشفتيها دون أن تنبس بحرف
واحد. وما هي إلا لحظة واحدة حتى انطلقت إلى الدهليز في إثرها .

في اللحظة التي كنت أهبط فيها السلم أوقفني صوت ما فعرفت فيه صوت الأنسة فيردور التي لحقت بها إيزابيل في المدخل ورأيتهما وأنا أميل على الدرابزين ، وكانت أوليمب فيردور تمسك بيدها مصباحا صغيرا كانت تقول :

- هل ستذهين دون أن تقبلية ؟

فهمت أنها تتحدث عن كازيمير .

- ألا تريدین أن تلقي نظرة عليه ؟

- كلا يا لولي إني متعجلة للغاية لا ينبغي أن يعرف أني جئت .

أطبق صمت وحركات لم أدرك معناها في البداية ، ثم اضطرب المصباح عاكسا ظلالا متراقصة ..

تقدمت الأنسة فيردور وتقهقرت إيزابيل بضع خطوات ، ثم سمعت :

- بلى بلى ، ذكرى لك مني احتفظت به منذ وقت طويل . أما الآن فقد تقدمت بي السن ، فماذا أفعل به ؟

- لولي لولي .. أنت خير ما أتركه هنا ..

ضممتها الأنسة فيردور بين ذراعيها :

- أه ! يا للمسكينة ! إنك مبلة تماما .

- أمعطف فقط ! ، ليس هناك من خطر دعيني أذهب بسرعة ..

- خذي معطفًا يقيك المطر على الأقل ..

- كف المطر والمصباح .

- ماذا سأفعل به ؟ العربة قريبة جدا .. الوداع ..

- الوداع يا ابنتي المسكينة .. أتمنى من الله ..

غابت بقية العبارة في النحيب ، ومكثت الأنسة فيردور بضع لحظات ماثلة بجسمها في ظلام الليل . وصعدت .. هبت ريح رطبة من الخارج إلى بير السلم ، ثم سمعت الأنسة فيردور تدفع المزلاج في الباب الذي كانت قد أغلقته .

لم يكن ممكناً أن أمر أمام الأنسة فيردور .. وكان جراسيان يحمل في كل مساء مفتاح باب المطبخ ، وكان هناك باب آخر في الطرف الآخر من القصر . كان من السهل أن أخرج منه . لكن الطريق إليه كان طويلاً . وقبل أن أبلغه تكون إيزابيل قد وصلت إلى عربتها . آه ! لو أناديتها من النافذة .. أسرع إلى حجرتي كان القمر قد عاد إلى الاختفاء فانتظرت لحظة أقرب صوت الخطى فهبت ريح شديدة . وبينما كان جراسيان يعود إلى المطبخ سمعت من خلال حفيف الأشجار المضطربة عربة إيزابيل وهي تنطلق مبتعدة .

أجلت كل ما يهمني وما أن عدت إلى باريس حتى استغرقتني المشاغل التي صرفت إليها ذهني واستأثرت بتفكيري .. كان القرار الذي اتخذته بخصوص عودتي إلى الكارفورش في الصيف القادم قد خفف من حدة أسفي لأنني لم أتماد في المغامرة التي كنت قد بدأت أنساها عندما تلقيت إشعارا مزدوجا في نهاية يناير . فقد توفي السيد فلوش ولحقت به زوجته بعد فترة قصيرة . على المظروف تعرفت على خط الأنسة فيردور ولكنني أرسلت إلى كازيمير بعبارات الأسف والمشاركة المألوفة وبعد أسبوعين تلقيت هذه الرسالة:

عزيزي السيد جيرار .

(لم يرغب الصبي أن يدعوني بلقب العائلة وكان قد سألني في إحدى نزهاتنا وبالتحديد في اليوم نفسه الذي بدأت أحدثه فيه بلا كلفة قال : ما اسمك ؟ - ولكنك تعرفه ياكازيمير اسمي السيد لاكاز .. فعاد يقول : كلا ، لا أريد هذا اللقب أريد اسمك أنت) ..

« جميل منك أنت تكتب لي كان خطابك جميلا ، لأن الكارفورش الآن أصبحت حزينة ، أصيبت جدتي بوعكة يوم الخميس ولم يعد

بإمكانها مغادرة حجرتها وقد عادت والدتي إلى الكارفورش ورحل الأب عنها ؛ لأنه عين قسًا في بروي » كان موت خالي وخالتي بعد ذلك .. مات خالي أولا وكان يكنُّ لك جبا كبيرا وفي يوم الأحد التالي ماتت خالتي بعد مرض استمر ثلاث أيام لم تكن أُمِّي موجودة وكنت وحدي مع لولي ويلفين زوجة جراسيان ، وهي تحبني كثيرا كان أمرا يبعث على الحزن والأسى ؛ لأن خالتي لم تكن تريد أن تفارقني . ولكن لم يكن هناك مفر من ذلك . أنا الآن أنام في حجرتي بجوار ديفلين ؛ لأن لولي تركتني إلى أخ لها استدعاها في « الأورن » وجراسيان أيضا لطيف معي للغاية علمني طريقة الغسل وتلقيح الأشجار وهو ما يسليني كما أساعد في تحطيم الأشجار . تذكر الورقة التي كتبت لي فيها تعهدك . عليك بنسيانها فلن يكون هنا أحد في استقبالك إلا انه يحزنني كثيرا ألا أراك مرة أخرى ؛ لأنني أحبيتك جبا صادقا ولن أنساك .. صديقك الصغير كازيمير .

لم أكثر كثيرا لوفاة السيد فلوش وزوجه لكن هذه الرسالة العفوية حركت مشاعري كنت مشغولا وقتها إلا أنني أخذت عهدا على نفسي بأن أخرج في جولة استكشافية حتى الكارفورش ما أن تبدأ إجازة عيد الفصح . فماذا يعني في عدم استقبالي ؟ سوف أنزل في «البون - ليفيك » وأستأجر عربة فهل أنا في حاجة إلى إضافة احتمال لقاء إيزابيل الغامضة والتي تجذبني قدر شفقتي على الصبي ! كانت بعض فقرات الرسالة غامضة لي ووجدت عناء في ربط الأحداث ..

مرض العجوز وصول إيزابيل إلى الكارفورش ، رحيل القس ، وفاة العجوزين في غياب ابنة الأخت ، سفر الأنسة فيردور .. هل ينبغي ألا أرى في كل ذلك غير سلسلة من الأحداث العرضية أم كان ينبغي أن أبحث عن صلة تربط بينها ؟ لو حاولت فلا كازيمير سيفيدني ولا القس سيخبرني .

اضطرت للانتظار حتى شهر أبريل وجاء اليوم الثاني من إجازتي فسافرت .

على محطة « بروي » ، لمحت القس سانتال يتهيأ ليستقل قطاري فناديته فأجابني قائلاً :

- هل عدت إلى البلدة مرة أخرى ؟

- لم أكن أتصور أنني سأعود إليها فعلاً بهذه السرعة !

صعدت إلى ديواني .. كنا فيه وحدنا .

- إيه ، حدثت أمور جديدة بعد زيارتك .

- نعم علمت أنك عينت قساً في « بروي » .

- دعك من هذا !

مد يده في حركة فهمتها ، فقال :

- هل وصلك إشعار ؟

- نعم وعلى الفور أرسلت بعزائي لتلميذك ؛ فهو الذي أخبرني ولكنه

لم يخبرني إلا بالقليل ، وكنت سأكتب لك لأسألك بعض التفاصيل ؟

- كان ينبغي أن تفعل ذلك :

فأضفت ضاحكا :

- تصورت أنك قد لا ترحب باطلاعي على شيء ..

لكنه كان يبدو أقل تكتها مما كان أيام الكارفورش ، وبدا عليه الاستعداد للكلام .

- هل تصدق أن كل ما يحدث هناك يبعث على الأسى والحزن ؟

جميع الممرات سوف تمر بالمحنة نفسها .

لكنني لم أدرك قصده من أول وهلة إلا إني تذكرت عبارة كازيمير عندما قال : « أعاون في تخطيم الأشجار »

فسألته بسداجة :

- ولماذا ذلك ؟

- لماذا ؟ آه يا سيدي الطيب . سل إذا الدائنين عن ذلك ؟ ثم إن الأمر لا يعينهم ، بل إن كل شيء يجري دون علمهم . الضيعة غارقة في الديون والأنسة دي سان - أوريول تسلب ما يمكنها سلبه .

- هل هي هناك ؟

- كأنك لا تدري

- استتجت ذلك من بعض عبارات ..

- ساءت الأمور منذ وصولها .

صمت لحظة لكنه لم يتمكن من مقاومة حاجته للكلام هذه المرة ،
بل لم يعد ينصت لأسئلتي وجدت أن الأفضل ألا أوجه له سؤالا
فاستطرد يقول :

- كيف علمت هي بشلل والدتها ؟ هذا ما لم أجد له تفسيراً
وعندما علمت أن البارونة العجوز لم يعد في إمكانها مفارقة مقعدها
حضرت بمتاعها ولم تجرؤ مدام فلوش على طردها . وهنا رحلت أنا .
- من المؤسف أنك تخليت عن كازمير بهذه الطريقة .

- ربما لكن مكاني ليس جوار هذه المخلوقة .. نسيت أنك كنت
تدافع عنها .

- وقد أدافع عنها أيضا لو كان ثمة مجال لذلك يا سيدي الخوري .
- كما تحب . نعم ، نعم فالآنسة فيردور كانت تدافع عنها أيضا
وظلت تدافع عنها حتى رأت سيديها على فراش الموت .

راقني أن القس تخلى عن التألق في استخدام اللفظ الذي كان
يتوخاه في الكارفورش .. أصبح يستخدم من الإيحاءات والألفاظ
ما يميز خوريا في قرية نورماندية . استأنف حديثه بقوله :

- هي أيضا وجدت من الغريب أن يموت الاثنان في وقت واحد.

- هل ؟

- أنا لا أزعم شيئا .

نفخ شفته العليا كعادته القديمة ، وعاد يقول :

- لا يمنع أنهم بدأوا يتندرون في البلدة .. ويسوؤهم أن تترث الفتاة خالتها ! أنت رأيت بنفسك أن الأنسة فيردور آثرت الرحيل ..

- ومن بقى إلى جوار كازيمير ؟

- آه ! لعلك أدركت أن أمه لا تصلح معشرا حسنا له ! وهو يقضي كل وقته عند آل « شوانتروى » أقصد البستاني وزوجته .

- جراسيان ؟

- أجل جراسيان الذي عارض تحطيم أشجار الحديقة ، إلا أنه لم يتمكن من منع شيء .. إنها مأساة !

- على كل لم يكن آل فلوش معدومين ..

- كل شيء سُلِب من اليوم الأول يا سيدي العزيز ، كانت مدام فلوش تمتلك مزرعتين من الثلاث التي تتألف منها الكارفورش فبيعت هاتان المزرعتان منذ أمد للمزارعين . أما الثالثة من أملاك البارونة ، فلم تعد تؤجر للفلاحين ؛ إذ كان جراسيان يشرف على محصولها وسرعان ما عرضت للبيع هي الأخرى .

- الكارفورش تعرض للبيع !

- بالمزاد . لكن هذا لن يتم قبل نهاية الصيف . صدقني أن الأنسة تستفيد من هذا الوضع حتى يحين وقت البيع . وستبدل في سبيل ذلك ما بوسعها فعندما يتم نزع نصف الأشجار ..

- كيف يتقدم أحد لشراؤها منها وهي لا تملك حق بيعها ؟
- آه ! أنت لا تزال شابا حدث السن .. عندما تعرض السلعة بضمن زهيد تجد دائما من يشتريها !
- أي محضر يمكنه أن يحول دون ذلك !
- المحضر متفاهم مع مدير أعمال الدائنين وهو يقيم بالكارفورش، مال على أذني وقال :
- مادامت تريد أن تعلم كل شيء فاعلم أنه ينام معها .
- سألته دون أن أظهر تأثرا بعبارته الأخيرة :
- وكتب السيد فلوش وأوراقه ؟
- سيعرض أثاث القصر مع المكتبة للبيع قريبا .. بمعنى أصح، سيوقع عليها الحجز .. ولحسن الحظ فإن أحدا لا يدرك قيمة بعض المؤلفات وإلا لاختفت منذ زمن !
- وقد يظهر أفاق فجأة !
- الآن وضعت الأختام فلا نخش شيئا فلن ترفع إلا عند الجرد .
- وما قول البارونة في هذا كله ؟
- لا تدرك شيئا .. فهم يقدمون لها الطعام في حجرتها ، وهي لا تعرف حتى أن ابنتها موجودة بالقصر .
- وماذا عن البارون ؟

- مات منذ ثلاثة أسابيع في « كابين » في ملجأ كنا قد وفقنا في إدخاله إليه .

بلغنا « بون ليفيك » فأقبل كاهن للقاء القس سانتال الذي أستاذن مني بعد أن دلني على فندق ومؤجر عربات .

أوصلتني العربا التي استأجرتها في اليوم التالي حتى مدخل حديقة الكارفورش واتفقت مع صاحب العربا على أن يرجع بعد ساعتين ليعود بي بعد أن تكون الجياد قد استراحت في حظيرة إحدى المزارع .

وجدت باب الحديقة الحديدي مفتوحا على مصراعيه .. كانت أرضية المرمر قد تلفت من جراء عربات النقل . توقعت أن أشاهد أفضع مظهرا للدمار والخراب ولكنني فوجئت مفاجأة سارة ، إذ رأيت عند المدخل شجرة الزان ذات أوراق الخوخ وقد نبتت براعمها . لم أفكر أنها لا تدين بحياتها إلا لدنو أخشابها . وبينما كنت أتقدم ، وجدت إن الفأس قد أتت على أجل الأشجار ، وقبل أن أخوض في جوانب الحديقة أردت أن أزور الدار الصغيرة التي اكتشفت فيها رسالة إيزابيل ، ولكنني وجدت مكان مزلاجها المحطم قفلا مغلقا (علمت بعد ذلك أن الخطابين يكذبون في هذه الدار أدواتهم وملابسهم) . مضيت في طريقي متجها إلى القصر . كان الطريق الذي سلكته مستقيما تحف به أشجار العوسج المنخفضة ولم يكذب يؤدي إلى واجهة القصر ، وإنما كان يؤدي إلى جناح المرافق وينتهي إلى المطبخ

الذي يطل على باب بستان الخضر اوات وكنت لم أزل بعد بعيدا عن ذلك الباب عندما شاهدت جراسيان يخرج منه حاملا سلة من الخضر اوات .. لمحني ولكنه لم يتعرف عليّ من أول وهلة ؛ فناديتـه فأقبل نحوي وبادرني بقوله :

- آه ! السيد لاكاز ! حقا ما كان أحد يتوقع أن يراك في مثل هذا الوقت !

أخذ يتطلع إليّ وهو يهز رأسه . لم يدار تبرمه من حضوري ، ولكنه أضاف بلهجة أكثر رقة :

- ومع كل فسيـر الصبي لرؤيتك ..

كنا قد مشينا بضع خطوات نحو المطبخ دون كلام ، فأشار لي بأن أنتظره ودخل ليضع سلته ، ثم عاد وقال لي بلهجة أكثر حفاوة :

- جئت إذا لترى كيف تسير الأمور في الكارفورش ؟

- يبدو أنها ليست على خير ما يرام !

نظرت إليه فإذا بذقنه يرتجف وظل ممسكا عن الإجابة وفجأة جذبني من ذراعي واقادني إلى العشب الذي كان يمتد أمام درج حجرة الاستقبال ، حيث كانت ترقد جثة شجرة زان ضخمة أذكر أنني احتميت بها من المطر في الخريف . كانت أكداس وحزم من أغصانها منزوعة عنها قبل اقتلاعها ، قال لي :

- هل تعلم كم تساوي شجرة كهذه ؟ اثنتا عشرة بستولة وهل تعلم بيعت بكم ؟ بيعت هي وأمثالها بأقل من بستولة !

لم أكن أعلم أنهم في تلك البلدة يطلقون كلمة بستولة على قطعة النقود فئة العشرة فرنكات ، ولكن لم يكن ذلك وقت الاستفسار والاستيضاح .. كان جراسيان يتكلم بصوت مخنوق . التفت إليه فإذا به يمرر ظهر يده على وجهه فيمسح دموعا أو عرقا ، ثم ضم قبضته وقال :

- آوه ! يا لهم من لصوص ! يا لهم من لصوص ! عندما أسمعهم يضربون بسواطيرهم وفتوسهم .. أشعر بالجنون .. إن ضرباتهم تنهال فوق رأسي ، فأشعر برغبة في أن أصبح النجدة ! اللص ! وأشعر بالرغبة في القتل . أول أمس قضيت نصف النهار داخل القبو كان الصوت يصلني ضعيفا .. في بادئ الأمر وجد الصبي في عمل الخطايين شيئا من اللهو والتسلية وعندما كانت الشجرة تشرف على السقوط كانوا ينادونه ليشد الحبل معهم . لكن عندما اقترب هؤلاء الأفاقون من القصر ، وهم يواصلون اقتلاع الأشجار ، بدأ الصبي يشعر بأن الأمر لم يعد مدعاة للتسلية . وإذا به يخاطبهم بقوله : « آه ! دعوا تلك » فقلت له « يا صغيري المسكين حتى لو تركوها فلن تكون لك هي وغيرها » .. وأخبرته بأنه لن يستطيع البقاء في الكارفورش ، ولكنه صغير لا يفهم أنهم سلبوه كل شيء . لو أبقونا في المزرعة الصغيرة لما توانيت عن أخذه معنا ، ولكن أحدا لا يدري من



سيشترها ، ومن سيكون الوغد الذي سيحتل مكاننا فيها ؟! وكما ترى
يا سيدي فأنا لست عجوزا بعد ولكني كنت أفضل أن أموت قبل أن
أرى كل هذا ..

- ومن يقيم بالقصر الآن ؟

- لا أريد أن أعرف ذلك . الصغير يتناول طعامه معنا في المطبخ .
وهذا خير له . والبارونة لم تعد تفارق حجرتها . وهذا لحسن حظها
المسكينة وديلفين هي التي تحمل إليها وجباتها عن طريق سلم الخدم
حتى تتجنب لقاء من لا تحب .. أما الآخرون فلديهم من يقوم على
خدمتهم ، ونحن لا نتحدث مع أحد .

- ليس من المفروض أن يوقع حجز على الأثاث قريبا ؟

- عندها سنحاول أن نصطحب سيدي البارونة إلى المزرعة حتى
لا تعرض للبيع مع القصر .

سألته مترددا ؛ لأنني لم أكن أدري كيف دعوني :

- والآنسة ... وابتتها ؟

- يمكنها أن تذهب حيث نشاء بعيدا عنا ، فكل ما يحدث هو
بسببها .

كان صوته يرتجف من شدة الغضب، بحيث أدركت كيف استطاع
هذا الرجل أن يصل إلى حد ارتكاب جريمة للذود عن شرف سادته .

- هل هي الآن بالقصر ؟

- في هذه الساعة لابد أنها تتنزه في الحديقة . ويبدو أن ما يحدث لا يضيرها ؛ فهي تتطلع إلى الخطابين وفي بعض الأيام تتحدث معهم بلا حياء . لكن عندما تمطر السماء لا تفارق حجرتها . انظر ها هي حجرتها تلك التي تقع في الزاوية وهي تقف ملتصقة بزجاج النافذة تتطلع إلى الحديقة . لو لم يكن رجلها في « ليزبو » منذ ربع ساعة لما وجدتني بالخارج . آه ! هذه هي المدينة يا سيد لاكاز . لو قدر لسادتي المساكين أن يعودوا ليروا ما يحدث في عقر دارهم لأسرعوا بالعودة إلى مثواهم .

- كازيمير هل هو هنا ؟

- يتنزه أيضا في الحديقة . هل تريد أن أستدعيه ؟

- كلا سأعرف كيف أعثر عليه بنفسني .. إلى اللقاء قريبا ، سأعود لرؤيتك طبعاً أنت وديفلين قبل الرحيل .

بدا الدمار الذي أحدثه الخطابون بشعا في ذلك الوقت الذي يتهياً فيه كل شيء ليبحث من جديد . في ذلك الجو الفاتر كانت أفنان الأشجار تملئ وتنتفخ وتنبث فيها البراعم . كان كل غصن قطع من شجرته يبكي عصارته . كنت أتقدم في خطى وثيدة وأنا مكتئب النفس . وكان يزيد اكتئابي ما كان يبعثه المشهد حولي من ألم . ربما كنت ثملاً من شدة الأريج النباني الذي كان يخرج من الشجر المحتضر وبطن الأرض .

إن ما يمثله ذلك التعارض بين تلك الأشلاء من الموتى والربيع الوليد لا يكاد يؤثر في نفسي ، وهكذا لم تكلفت الحديقة وفتحت ذراعيها للنور الذي بدأ يصبغ ما فيها من موت وحياة بلونه الذهبي . ومع ذلك فقد كانت دقائق قلبي السعيدة تصاحب النغمات الحزينة التي كانت تأتيني من بعيد صادرة عن الفئوس التي كان صداها الجنائزي يملأ الأرجاء . وكانت الرسالة القديمة التي حملتها معي وآليت على نفسي ألا أستفيد منها مع أي في بعض الأحيان كنت أضمرها إلى قلبي تلهبه وتضرم فيه النار . كنت أحدث نفسي قائلاً : لا شيء يستطيع أن يعترض سبيلي اليوم .. وابتسمت عندما شعرت أني أسرع الخطى لمجرد التفكير في إيزابيل . لما كنت مدفوعاً في ذلك بإرادتي ولكن كانت بداخلي قوة تدفعني إلى ذلك .

عجبت لما في الدار من وحشية زادت ببهاء الطبيعة في عيني ، وعجبت كيف أن اغتيال القس لإيزابيل لم ينجح في إبعادها عنها . وأني كلما كنت أفكر فيها يلتهب شوقي إليها .. لماذا يا ترى لا يزال يربطها بهذه الأماكن التي تفيض ذكريات بغیضة ؟ كنت أعرف أنه ما من شيء سيبقى لها من الكارفورش عندما تباع ولن يبلغها منها عائد.. فلماذا لم تلذ بالفرار ؟ صور لي خيالي أن أقوم باختطافها ذلك المساء في عربتي فأسرعت خطاي ، بل كنت أعدو تقريباً عندما فوجئت بها على بعد مسافة مني .. كانت هي بلا شك في ثياب الحداد عارية الرأس جالسة فوق جذوع شجرة محطمة تعترض الممر .. دق

قلبي بشدة لدرجة أنني اضطررت للتوقف بعض الوقت ، وتقدمت في اتجاهها بخطى بطيئة وهدوء كما المتزهد الذي لا يعبأ بشيء . وما أن بلغتها حتى سألتها :

- معذرة يا سيدتي .. أنا الآن في الكارفورش أليس كذلك ؟

وإلى جوارها فوق جذع الشجرة كانت توجد سلة لأشغال الإبرة مليئة ببيكرات الخيط وأدوات الحياكة وقطع من قماش الكريب ملفوفة على بعضها أو منكوشة . وكانت منصرفة إلى تثبيت أجزاء من هذا القماش فوق غطاء متواضع للرأس مصنوع من اللباد كانت تمسكه بيدها . رأيت على الأرض شريطا أخضر يبدو أنها نزعته عن غطاء الرأس منذ قليل . كانت تتدثر بمعطف صغير أسود يغطي كتفيها . عندما رفعت هامتها أبصرت الإبريم المبتذل الذي كانت تغلق به ياقة المعطف .. لم أشك في أنها لمحتني من بعيد ؛ لأن صوتي لم يفاجئها . قالت :

- جئت تشتري الضيعة ؟

قالت بصوتها الذي تعرفت عليه فدق له قلبي . كم كان جبينها المكشوف جميلا !

- آوه ! بل جئت زائرا .. كانت الأبواب الحديدية مفتوحة ورأيت أناسا يتجولون فهل أكون متطفلا إذ دخلت ؟

- كل من يريد الدخول يستطيع أن يدخل الآن .

وأطلقت زفرة عميقة لكنها عادت إلى عملها كأنها لم يعد بيننا ما يقال.

ولما لم أكن أدري كيف أواصل حديثا ، قد يكون الوحيد بيني وبينها ، فكان يجب أن يكون قاطعا ونهايا حديثا بدا لي أن الوقت لم يحن بعد للخوض فيه فقد كنت أنوي أن احتاط له قبل طرده . ولما كان عقلي وعاطفتي قد فاضا بالانتظار والأسئلة التي كنت لا أجرو بعدد على توجيهها . مكثت أمامها أرفع بطرف عصاي شظايا الخشب وأنا مرتبك بين قعة شديدة وسذاجة مفرطة في الوقت نفسه حتى رفعت بصرها وتفرسته في وجهي فظننت أنها ستنفجر ضاحكة إلا أنها قالت بكل بساطة وربما ؛ لأنني كنت أضع قبعة رخيصة أعطي بها شعري الطويل ولم يكن يبدو أن ثمة عملا فعليا يستعجلني :

- هل أنت فنان ؟

فأجبت مبتسما :

للأسف لا ! ولكنني أذوق الشعر رغم ذلك ..

ودون أن أجرو على النظر إليها شعرت أن نظرتها تطوقني وأن ما دار بيننا من حديث منافي مبتذل بغیض إلى نفسي وأني أتألم إذ أنقله.. فاستأنفت حديثي قائلا :

- كم هي جميلة هذه الحديقة !

لاح لي أنها لا تريد إلا أن تتحدث ، ولم يكن يحيرها - مثلي - إلا كيفية الدخول في المناقشة ، فقد صرحت بأني لا أستطيع الآن للأسف

أن أتصور ما يمكن أن تصبح عليه الحديقة في فصل الخريف فهي لا تزال بمنأى عن الشتاء وبرده . كذلك لا أستطيع أن أتنبأ بما سيبقى منها بعد هذا العمل الرهيب الذي ينزله بها الخطابون فصحت قائلاً :

- ألا يمكن منعهم ؟

فردت ساخرة وهي ترفع كتفها عاليا :

- منعهم ؟!

ظننت إنها تريني قبعتها البائسة كشاهد على رقة حالها ، إلا أنها رفعتها لتضعها فوق رأسها مطروحة إلى الوراء كاشفة جبينها ، ثم شرعت في ترتيب قطع القماش الكريب كأنها تتهيا للانصراف . فانحنيت عند قدميها والتقطت الشريط الأخضر وقدمته لها .

قالت دون أن تتناوله :

- ماذا أصنع به الآن ؟ إنك رأيته في ثياب الحداد .

عبرت لها فوراً عن الحزن الذي شعرت به عندما علمت بوفاة السيد فلوش وزوجه ووفاة البارون بعدها . فلما أبدت دهشتها لمعرفتي أهلها أخبرتها إني عشت بينهم اثني عشر يوماً في أكتوبر الماضي .. عقت في الحال قولها :

- لماذا زعمت منذ قليل أنك لا تعرف أين أنت ؟

- لم أكن أدري كيف أبدأ الحديث معك .

ودون أن أستفيض في الكشف عما في داخلي بدأت أحدثها عن الفضول الشديد الذي أبقاني في الكارفورش يوما بعد يوم أملا في لقائها (لم أحدثها عن تلك الليلة التي تطلعت عليها فيها) ، ثم حدثتها عن أسفي لعودتي إلى باريس دون رؤيتها فقالت :

- وما مبعث كل هذه الرغبة في معرفتي ؟

لم تعد تتظاهر بالانصراف ، وكنت قد جذبت حزمة ضخمة من الخشب وضعتها أمامها بالقرب منها وجلست عليها . فلما كان وضعي منخفضا عنها رفعت بصري لأراها وكانت منصرفة بطريقة صبيانية إلى لف شرائط الكريب فلم أعد أحظى بنظراتها . وحدثتها عن صورتها وأبديت قلقي لما يمكن أن تصير إليه هذه الصورة التي كنت مغرما بها ولكنها لم تدر من أمر ذلك شيئا، وأضافت وهي تطلق ضحكة تأملت لجفافها :

- ربما يعثرون عليها عندما يرفعون الأختام، ثم تعرض للبيع مع غيرها وتستطيع أن تحصل عليها مقابل بضعة نقود إذا كان قلبك لا يزال متعلقا بها .

عبرت لها عن أسفي إذا لم تأخذ شعوري نحوها مأخذ الجد . وأوضحت لها أنني إذا كنت فاجأها بالتعبير عنه ، فإنه يشغل بالي منذ فترة طويلة . إلا أنها ظلت جامدة كأنها قررت ألا تسمع بعد ذلك شيئا مني . كان الوقت يمضي سريعا . ألم يكن عندي ما أقطع به

صمتها ؟ كانت الرسالة الملتهبة تنتفض بين أصابعي . وكنت قد فكرت في قصة اختلقها عن علاقات قديمة بين عائلتي وعائلة جونفريفيل بهدف حملها على الكلام . ولكنني في تلك اللحظة لم أشعر إلا بسخافة هذه الكذبة وبدأت أروي لها قصة المصادفة الغريبة التي أوقعت هذه الرسالة في يدي . ناولتها الرسالة قائلاً :

- آه ! أتوسل إليك يا سيدي لا تمزقي هذه الرسالة ! أعيدها إليّ .
كان وجهها قد شحب شحوب الموت وظلت لحظة دون أن تقرأ الرسالة المفتوحة فوق ركبتيها غامت نظراتها ورجفت أهدابها وإذا بها تهمهم قائلة :

- نسيت أن أستعيدها ! كيف نسيتها ؟!

- ربما اعتقدت أنها وصلته أو أنه حضر لأخذها ..

كانت لا تزال منصرفة عني لا تعيرني سمعاً وأتيت بحركة لاسترداد الرسالة، ولكنها أساءت تفسير حركتي فصاحت بي قائلة وهي تدفع يدي في خشونة :

- دعني !

ونفضت رغبة في الفرار فجنوت أمامها أستبقيتها :

- لا تخافي مني يا سيدي فأنا كما ترين لا أريد بك سوءاً . وعندما عادت إلى الجلوس أو بالأحرى عندما انهارت خائفة القوى توسلت

إليها ألا تسخط على إن كانت المصادفة قد اختارتني لأكون أمينا على سرها رغما عني . وتوسلت إليها أن تبقى على هذه الثقة التي أقسمت ألا أخونها ما حييت . آه ! لماذا لا تحدثني كصديق حميم لا يعرف من أمرها إلا ما تطلعه عليه بنفسها ؟

ربما أقنعتها عبراتي التي ذرفتها أكثر مما أقنعتها حديثي وعدت أقول :

- وا أسفاه ! أعلم فظاعة الموت الذي سلبك حبيبك في تلك الليلة .. ولكن كيف بلغك هذا الخبر المشثوم ؟ وماذا صور لك خيالك في تلك الليلة وأنت عاكفة على انتظاره مستعدة للهرب معه ؟ وماذا صنعت عندما وجدت أنه لا يظهر ؟

قالت بصوت حزين :

- طالما أنك تعلم كل شيء فأنت تعلم طبعاً أني لم أكن أنتظره بعد أن أخبرت جراسيان .

وفجأة تجلت الحقيقة في أبشع صورها فلم أستطع أن أمسك نفسي عن الصياح :

- ماذا ؟ أنت التي أوعزت بقتله ؟!

وهنا هوت منها الرسالة والسلة على الأرض وتناثر ما كان فيها من أشياء ووضعت جبينها بين يديها وأخذت تجهش بالبكاء بغير وعي فملت عليها وحاولت أن أتناول يديها بين يدي فصدتني قائلة :

- كلا أنت جاحد قاس !

كانت صيحتي الهوجاء قد أتت على اطمئنانها من ناحيتي فقطبت جبينها وعبست في وجهي، وكنت لا أزال جالسا أمامها وقد عقدت العزم على ألا أفارقها قبل أن تصرح لي بأكثر مما عرفت . أخيرًا هدا نشيجها فأقنعتها بهدوء أنها استطردت في الكلام بحيث لا تستطيع أن تمسك عنه دون إيذاء . وأنها لو أفضت لي باعتراف صادق ، فلن يقلل ذلك من شأنها في نظري ، وأنه لا يحز في نفسي أكثر من لزومها الصمت . أسندت مرفقيها على ركبتيها وحجبت جبينها بيديها المتشابكتين وقصت :

كانت قد كتبت هذه الرسالة في الليلة السابقة لليلة التي قررت فيها الهروب . كتبتها في غمار لوعة الغرام التي تملكتها في تلك الليلة . وفي الصباح حملتها إلى الدار ووضعتها في ذلك المكان السري الذي كان يعرفه « بلير جونفريفيل » وكانت تعلم أنه سرعان ما سيأتي لأخذها، ولكنها ما أن عادت إلى القصر ، ووجدت نفسها في تلك الحجرة التي كانت تريد أن تغادرها إلى الأبد تملكها ضيق لا يمكن وصفه وخوف من تلك الحرية المجهولة التي طالما تلهفت عليها والخوف من ذلك العاشق الذي كانت لا تزال تتوق إليه والخوف من نفسها ومما كانت تخشى الإقدام عليه . أجل كانت قد اتخذت قرارها، أجل وأبعدت عنها كل ريبة أوشك وارتضت أن تتجرع العار، ولكنها ما أن وجدت أنه ليس هناك ما يقيدها ويحول بينها وبين الباب المفتوح للفرار

ضعفت ولم يطاوعها قلبها، وباتت فكرة الفرار بغیضة إلى نفسها لا تطيقها فأسرعت وأبلغت جراسيان أن البارون جونفرفيل عقد العزم على اختطافها من أهلها هذه الليلة بالتحديد، وأنه قد يجده وهو يحوم قبل المساء بالقرب من الدار ولا بد من منعه من الاقتراب .

عجبت لأنها لم تذهب لتسرد الرسالة بنفسها وتستبدلها بغيرها لصد عشيقها عن مشروعه الجنوني ولكنها كانت لا تتوانى عن التهرب من أسئلتي وأخذت تردد وهي تبكي أنها تعلم تماما أني لا يمكن أن أفهمها وأنها لا تستطيع أن تفسر أفضل من ذلك ولكنها في ذلك الوقت كانت تشعر أنها عاجزة عن صد عشيقها.. عاجزة عن اللحاق به . كان الخوف يشل حركتها، فأصبح رجوعها إلى الدار أمرا فوق طاقتها، ثم في تلك الساعة من النهار كان أبواها الرهيان يراقبانه ولهذا اضطرت للجوء إلى جراسيان .

- هل كان بوسعي أن أقدر أن جراسيان سيأخذ مأخذ الجحد ذلك الكلام الذي فلت مني في غمرة هذيانى ؟ تصورت .. أنه سيكتفي بإبعاده وانتفضت فزعا عندما سمعت بعد ساعة طلقا ناريًا بالقرب من الباب الحديدي إلا أن تفكيري تحول عن الاحتمال الرهيب الذي لم أتصوره، بل على العكس فبعد أن أخبرت جراسيان هداً فكري وقلبي وشعرت بالابتهاج .. ولكن عندما هبط الليل ودنت الساعة التي كان من المفروض أن تكون موعداً لفراري وجدتني أنتظر رغماً عني . وبدأ الأمل يداعبني ويمتزج بياس . نوع من الاطمئنان الذي

كنت أعلم تماماً أنه كاذب . لم أكن لأستطيع تصور أن أجبن لحظة أو أنهار ساعة زمن يمكن أن يقضى دفعة واحدة على حلمي الطويل فلم أكن قد أفقت بعد من حلمي ، وإذا بي كأني في حلم أهبط إلى الحديقة أرصد كل صوت وأترصد كل شبح فقد كنت لا أزال أنتظر .. وشرعت تبكي من جديد ثم استطردت في قولها :

- كلا لم أعد أنتظر، بل كنت أحاول خداع نفسي فكنت أشبه بمن تنتظر شفقة بنفسها . كنت أجلس أمام الخضرة فوق أسفل درجات الشرفة وقد ييس القلب ولم أكن أقوى على ذرف دمة .

وجدتني أفكر في شيء بل لا أدري حتى من أكون ولا أين كنت ولا ما جئت من أجله . غاب القمر الذي كان منذ قليل يغمر العشب بنوره فانتابني رعشة وتمنيت أن تكون رعشة الموت . طلع النهار ، فإذا بي فريسة مرض خطير ، فاستدعى الطبيب الذي كاشف أمي بأمر حلي .

توقفت لحظة، ثم عادت تقول :

- عرفت الآن ما كنت ترغب في معرفته . لو استكملت قصتي ستجدها قصة امرأة أخرى غير إيزابيل التي طالعتها في الصورة .

بالفعل أصبح من العسير على أن أعرف على تلك الإنسانية التي سلبت خيالي . صحيح أنها كانت تقطع حديثها من آن لآخر بالأنين والشكوى متحاملة على القدر، وكانت تشكو من الشعر والعاطفة

اللذين دائما ما يكونا على خطأ في هذا العالم إلا إنني كنت أشعر
بالأسف، لأنني لم أتبين في صوتها الحزين تلك الحرارة اللطيفة التي
تصدر عن القلب .. لا آسف إلا عليها ! عجباً ! أو هكذا تصورت
الحب ! ..

وإذا بي ألتقط الأشياء التي تناثرت من السلة المنقلبة فوق الأرض .
ولم أعد أشعر برغبة في زيادة الاستفسار . ووجدتني لا أكثرث فجأة
بشخصيتها ولا بحياتها . ومكثت أمامها أشبه بغلام أمام لعبة حطمها
ليكشف عن سرها، بل إن الفتنة الجسدية التي كانت لا تزال تتمتع بها
لم تحرك مني ساكنا ولا خفق أهدابها المثيرة الذي كنت أنتفض له منذ
قليل أهاجني .. كنا نتحدث عن رقة حالها واحتياجها فسألناها عما
تنوى عمله فأجابت :

- سأسعى إلى إعطاء دروس خصوصية في العزف أو الغناء فلدى
طريقة جيدة .

- آه ! هل تغنين ؟

- أجل وأعزف .. درست كثيرا في السابق وكنت تلميذة لتاريليج
وأحب الشعر كثيرا .

ولما لم أجد ما أقوله لها أضافت قولها :

- أنا على ثقة من أنك تحفظ بعض الشعر عن ظهر قلب ! ألا تحب
أن تسمعني منه شيئا ؟

لكن النفور والتقرز ساعدا على الإجهاز على الحب في داخلي
فنهضت لأستأذنهما في الانصراف فقالت :

- عجباً ! أنتصرف بهذه السرعة ؟

- للأسف ! أنت مثلي تشعرين أنه من الأفضل أن أنصرف الآن .

تصوري أني كنت بين أهلك في يوم من أيام الخريف الماضي .. وقد
جعلتني حرارة الجو في الكارفورش أستسلم للنوم وأرى حلماً لم أفيق
منه إلا منذ لحظة ! الوداع .

عند طرف المر ظهر من يعرج فقلت :

- أعتقد أني ألح كازيمير الذي يجيء للقائي .

- هو قادم فانتظر .

كان الصبي يقترب في وثبات قصيرة وكان يحمل فوق كتفه مجرافاً .

- اسمحي لي أن أذهب للقاءه فقد يعرج إن وجدني معك .

معذرة .

عجلت بوداعي بطريقة خرقاء فحيثها في أدب وانصرفت .

لم أر إيزابيل دي سان - أوريول بعد ذلك ولم أعلم عنها شيئاً، بلى
فعندما عدت إلى الكارفورش في الخريف التالي أخبرني جراسيان أنها
هربت مع حوذي عشية الحجز على أثاث القصر، بعد أن هجرها مدير
الأعمال وأضاف جراسيان كمن يلقي حكمة :

- كما ترى سيد لاكاز ، لم تستطع أن تبقى وحدها .. كان لابد لها من عاشق دوما .

بيعت مكتبة الكارفورش في منتصف الصيف . وعلى الرغم من التعليقات التي أوصيت بها لم أعلم بذلك ، وأعتقد أن صاحب «مكتبة كان» الذي ندب للإشراف على عملية البيع لم يهتم بدعوتي كما لم يهتم بدعوة أي من هواة الكتب الجادين . وكم كانت دهشتي وسخطي عندما علمت فيما بعد أن نسخة التوراة الشهيرة بيعت بسبعين فرنكا لبائع كتب قديمة في البلدة .. وسرعان ماباعها بثلاثمائة فرنك . ولم أعرف المشتري الجديد .

أما عن مخطوطات القرن السابع عشر ، فلم يأت ذكرها حتى في كشف المبيعات واعتبرت أوراقا قديمة .

كنت أريد أن أحضر عملية بيع الأثاث على الأقل فكنت أنوي شراء بعض الأشياء الصغيرة كذكرى من آل فلوش، ولكنني أخطرت بعد فوات الأوان .. ولم أتمكن من الوصول إلى «بون ليفيك» إلا عندما عرضت المزارع والضيعة للبيع .

حصل على الكارفورش مقابل ثمن بخس تاجر عقارات يدعى «موزر سميدث» ينوى تحويل الحديقة إلى مرعى بعد أن اشتراها منه أحد الهواة الأمريكيين . لم أدر سبب شرائه لها؛ لأنه لم يعد إلى البلدة وترك القصر والحديقة على حالهما .

ولما كنت قليل الثروة في ذلك الوقت تصورت أني لن أحضر عملية البيع إلا مشاهدا . ولكنني في صباح ذلك اليوم كنت قد رأيت كازيمير عندما سمعت المزايدات فتملكني ضيق شديد وأنا أفكر في مأساة هذا الصبي فقررت فجأة أن أؤمن له حياته في المزرعة التي يتمنى جراسيان أن يقيم فيها - هل كنتما تعلمان أني أصبحت مالكا لها؟ فدون أن أقدر ما أنا مقدم عليه وجددتني أرفع المزاد كان هذا جنونا مني ولكن بهجة الصبي التي بعثت الأسى كانت أعظم مفاجأة لي .

ذهبت إلى هذه المزرعة لقضاء عطلة عيد الفصح وعطلة الصيف التالي عند جراسيان، حيث كان يقيم كازيمير . كانت مدام دي سان - أوريول العجوز لا تزال على قيد الحياة . كنا قد حاولنا قدر استطاعتنا أن نترك لها أحسن حجرة . وكانت من فرط تقدم سنها وما مربها من أحداث قد رجعت إلى عهد الطفولة . ولكنها مع ذلك تعرفت عليّ ، بل لم تكن قد نسيت اسمي تماما فعندما رأتني جعلت تردد في البداية :

- ما ألطف هذا يا سيد لاكاز .. ما ألطف هذا منك !

فقد كانت تعتقد أني ما جئت إلى البلدة إلا لزيارتها .

قالت معبرة عن اطمئنانها لي ، كما لو كانت توضح أسباب ما آلت إليه من رقة حال ، أو كأنها توضح لنفسها :

- يقومون ببعض الإصلاحات في القصر .. وسيصبح جميلاً
للغاية.

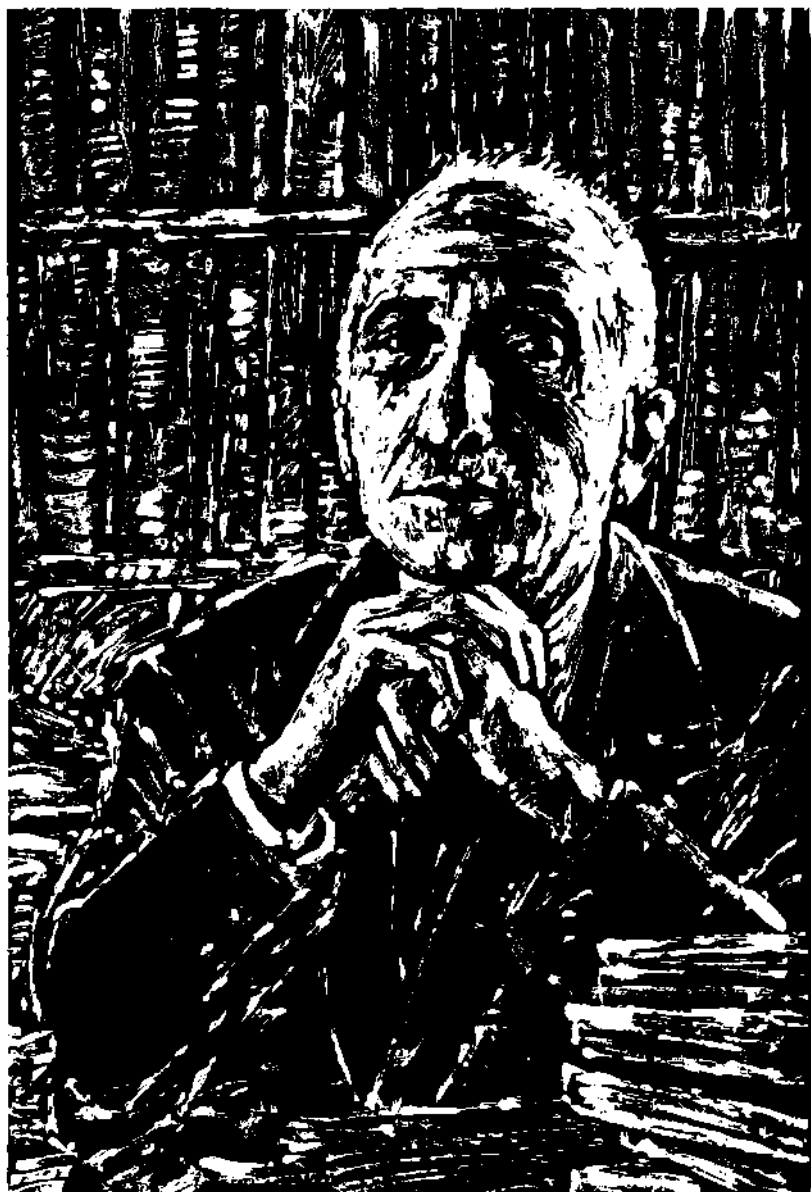
يوم أن عرض الأثاث للبيع كانوا قد أخرجوها إلى شرفة حجرة
الاستقبال في مقعدها الكبير ذي المساند .. قدموا لها المحضر على أنه
مهندس معماري شهير من باريس بشكل خاص ليشرف على الأعمال
التي ستنفذ (كانت تصدق بسهولة كل ما يرونها) ، ثم قام جراسيان
وكازيمير وديفلين بنقلها إلى تلك الحجرة التي قضى عليها ألا تفارقها
مع أنها ظلت تعيش فيها ثلاثة أعوام آخر .

خلال ذلك الصيف الأول الذي أمضيته في مزرعتي تم تعارفي بآل
(ب) .. وتزوجت من ابنتهم الكبرى فيما بعد . ولم تكن مزرعة (-)
التي آلت إلينا منذ وفاة أهل زوجتي بمنأى عن الكارفورش وفي كل
عام أعود إليها مرتين أو ثلاث مرات فأتحدث مع جراسيان وكازيمير
اللذين يقومان بفلاحة أرضها على خير وجه ويسددان لي بانتظام قيمة
الإيجار المتواضعة . وعندما تركتكما منذ قليل كنت قد ذهبت إليهما .

كان الليل قد تقدم عندما أنهى جيرار حكايته . إلا أنه قبل أن ينام
في تلك الليلة ذاتها كتب مريثة رابعة جاء فيها :

« لما سألتني أن أنعي هذه الضيعة المهجورة حيث الرياح
العاتية ... ».

النهاية ...



■ المؤلف

أندريه جيد

حائز على جائزة نوبل في الأدب 1947م .. ولد أندريه جيد في الثاني والعشرين من نوفمبر 1865م ، في العاصمة الفرنسية عن أب وصل إلى كرسي القانون بكلية باريس ، وأم من أسرة ثرية .. تلقى تعليمه على أعلى مستوى ..

تميز أندريه بالقراءة والتأمل من ناحية، وبنزعة التمرد والثورة التي ظهرت في كل كتاباته من ناحية أخرى.. وقد بدأ ظهور هذه النزعة التمردية في عمله الأول « كراسات أندريه فالتر » ، وهو بعُد في الثامنة عشرة من عمره .. تلك الكراسات التي جاءت إلهامًا من أمه، فضلًا عن تأثره بالأفكار القادمة من ألمانيا وبريطانيا .. والتي جعلت من جيد طائرًا بجناحين ، فهو المغامر ، وهو العاقل في الوقت نفسه .. يسعى للمتعة الذاتية ، ويقدم على التضحية .. هو الذاتي وهو الغيري في الوقت ذاته .. ومن ثم كانت أعماله « الأظعمة الأرضية » ، و« الشاذ » ، و« الباب الضيق » ، و« السيمفونية الريفية » و« المزيفون » ..

ولعل أهم أعمال جيد بعد ذلك تتمثل في « بحث نرسييس » 1892م و« رحلة » 1907م و« الباب الضيق » 1909م و« إيزابيل » 1911م .. ويقول عنه د. نظمي لوقا : « إن قراءة دوستوفسكي وفرويد قد أكسبت جيد قدرة على أن حقيقتنا تكمن في تلك الغرائز التي تكتبها التربة في أعماق أغوارنا .. » .

وتقديرًا لإحساسه بالناس ، ومحاولة تمهيد طريق الهداية والقناعة والرضى والإيمان أمامهم ، مُنح جائزة نوبل العالمية في الآداب 1947م .. وقد رحل جيد في 1951م عن 86 عاما ..



■ المترجم

فتحي العشري

الناقد المسرحي والسينمائي والأديب

- * تخرج في كلية الآداب ، قسم اللغة الفرنسية وآدابها - جامعة القاهرة.
- * تولى منصب مدير تحرير جريدة الأهرام القاهرية ، ورئاسة القسم الأدبي وقسم السينما .
- * رئيس تحرير مجلات سطور - كوكب الشرق - زينة - عين عربية - سياحة 2000.
- * أدار تحرير مجلتي الفيصل وكتابي .
- * رئيس تحرير سلاسل : الرواية العالمية - روايات جائزة نوبل ، وحوليات نجيب محفوظ .
- * عضو لجنة المسرح بالمجلس الأعلى للثقافة ، وعضو نقابات الصحفيين والسينمائيين والممثلين وعضو اتحاد الكتاب وجمعية كتاب ونقاد السينما، وأمانة مؤتمر الأقاليم ، ومؤتمر المسرح القومي .
- * نائب رئيس مهرجان الإسكندرية السينمائي الدولي .
- * أعد وقدم عددا من البرامج الإذاعية والتلفزيونية .
- * شارك في عدد من المهرجانات الدولية المسرحية والسينمائية والأدبية وفي لجان التحكيم .
- * كتب مقدمات لعدد من الروايات والمسرحيات والقصص والدراسات .

صلى من هذه السلسلة

تأليف أندريه جيد؛ ترجمة وتقديم محمود قاسم.	اللا أخلاقي
تأليف إرنست هيمنجواي؛ ترجمة وتقديم غبريال صالح.	المعجوز والبحر
تأليف جابريل جارسيا ماركيز؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.	الأم الكبيرة
تأليف فرانسوا مورياك؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.	صحراء الحب
تأليف نادين جورديمير؛ ترجمة وتقديم أحمد هريدي.	شعب يوليو
تأليف وليم جولدينج؛ ترجمة وتقديم عبد الحميد فهمي الجبال.	أمير الذباب
تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة وتقديم حسين عيد.	الكنز
تأليف رومان رولان؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.	أنطوانيت
تأليف ألبير كامي؛ ترجمة وتقديم محمد غطاس.	الغريب
تأليف هرمان هسه؛ ترجمة وتقديم محمد فؤاد عطا الله.	احلام الناي
تأليف جراتسيا دليدا؛ ترجمة وتقديم محمود علي مراد.	الأم
تأليف هاينرش بل؛ ترجمة وتقديم ياسين طه حافظ.	ولم يقل كلمة
تأليف جون شتاينبك؛ ترجمة خديجة خطاب.	مراعي الفردوس
	مغامرات نلز
تأليف سلمى لاجرلوف؛ ترجمة شوقي جلال.	المعجب
	رياح الشرق رياح الغرب
تأليف بيرل باك؛ ترجمة غبريال وهبة.	
تأليف أناتول فرانس؛ ترجمة وتقديم مصطفى كامل.	الآلهة عطشى
تأليف أندريه جيد؛ ترجمة وتقديم فتحي العشري.	إيزابيل

صدر من هذه السلسلة

اللا أخلاقي .. أندريه جيد
 العجوز والبحر .. إرنست هيمنجواي
 الأم الكبيرة .. جابرييل جارسيا ماركيز
 صحراء الحب .. فرانسوا مورياك
 شعب يوليو .. نادين جورديمر
 أمير الذباب .. وليام جولدينج
 الكنز .. سلمى لاجرلوف
 أنطوانيت .. رومان رولان
 الغريب .. ألبيركامي
 أحلام الناي .. هيرمان هسه
 الأم .. جراتسيا ديليدا
 ولم يقل كلمة .. هاينرش بل
 مراعى الفردوس .. جون شتاينبك
 مغامرات نلز العجيب .. سلمى لاجرلوف
 رياح الشرق ورياح الغرب .. بيرل باك
 الآلهة عطشى .. أناتول فرانس
 إيزابيل .. أندريه جيد

الدار المصرية اللبنانية



6222006319519